والإكرام. ولمّا كانت الآية الكريمة الّتي نهت عن ضرب الأمثال لله تعالى بالمعنى الّذي أومأنا إليه قد جاء فيها النّصّ على علم الله تعالى المطلق في القول : ﴿إنّ الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ فقد تحوّل السّياق بعد ضرب المثلين إلى الحديث في مظهر من مظاهر علم الله تعالى المحيط. إنّ لله تعالى غيب السّماوات والأرض. وإنّ قيام السّاعة، وهي من الغيب، كلمح البصر وخطف النّظر أو هو أقرب من ذلك لأنّ الله تعالى يقول للشيء كن فيكون. ولمّا كان ذلك من الأدلّة على قدرة الله تعالى فقد كان في السّياق النّصّ على قدرة الله تعالى المطلقة. ثمّ تحوّل الحديث إلى مظهرٍ أرضيٍّ دالٍّ على قدرة الله تعالى، وهو الإنسان الّذي كرّمه الله تعالى ولذلك جاء ذكره في السّياق أوّلاً. إنّ الله سبحانه وتعالى أخرجنا من بطون أمّهاتنا لا نعلم شيئاً وجعل لنا السّمع، أهمّ الحواسّ، والأبصار الّتي تلي السّمع أهمّيّة، والأفئدة بمعنى القلب الذّكيّ، والبصيرة النّيّرة، والفكر السّليم، وكلّ ذلك يحتاج إلى زمن ولذلك تأخّر ذكر الأفئدة في السّياق. إنّ الله سبحانه وتعالى العليم القدير منحنا، نحن غير العالمين وغير القادرين، كلّ هذه النّعم من أجل أن نشكر لله تعالى تلك النعم والآلاء بإفراد الله تعالى بالعبادة ابتداءً. ثمّ تحوّل السّياق إلى آية للمؤمنين ذات علاقةٍ بالسّماء وهي آية الطّير المسخّرات في هواء السّماء فوق الأرض وتحت السّماء. إنّ الّذي يمسكهنّ حينما يبسطن أجنحتهنّ ويقبضن هو الله تعالى القادر على كلّ شيء. ولمّا كان القول : ﴿ألم يروا إلى الطّير﴾ يراد منه أن يأخذ المشركون العظة والعبرة من هذه الآية ولكنّهم لم يعتبروا فإنّ السّياق نصّ على أنّ الّذين يستفيدون من هذه الآية بل الآيات هم المؤمنون وحدهم.

﴿الجنّة ثواب الشُّكْران، والنّار عقاب الكُفْران﴾
الآيـــات (٨٠ــــ٨٩)

بقصد أن يقوم النّاس بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له وإلاّ كان العذاب أليماً تتحدّث آيات القسم في بعض نعم الله تعالى على النّاس وثواب الشّاكرين وعقاب الكافرين. يتحدّث السّياق ابتداءً عن نعمة الله تعالى علينا بجعل بيوتنا سكناً لنا وطمأنينةً وأمناً. ويشترك في هذه الصّفة البيوت الثّابتة والبيوت المتحرّكة المعمولة من جلود الأنعام والّتي نستخفّها وقت حملها عند السّفر ووقت

نصبها عند الاستقرار. ومن أصواف الغنم وأوبار الإبل وأشعار المعز جعل الله تعالى لنا متاعاً وحليةً إلى حين انقضاء الآجال. وبعد الحديث عن السّكن الّذى للإنسان يدٌ فيه غالباً يتحوّل الحديث إلى السّكن الذّى ليس للإنسان يدٌ فيه غالباً حيث الظّلال الّتي خلقها الله تعالى للجبال والأشجار ونحوهما وحيث الكهوف فى الجبال والغيران. وإنّ الحديث عن الحرّ اللّافح فى المنطقة رشّح لتحوّل الحديث إلى السّرابيل الّتى جعلها الله تعالى لنا كي تقينا الحرّ وهي مصنوعةٌ من القطن أساساً، وإلى السّرابيل الّتى جعلها الله تعالى لنا كي تقينا أذى القتال وهي مصنوعة من الحديد أساساً. إنّ التّنبيه إلى هذه النّعم بقصد أن يُسْلِمَ العباد لله تعالى ربّ العالمين. فإن تولّى كفّار مكّة عن دعوة الحقّ ومن لفّ لفّهم من المشركين فليس على المصطفى ﷺ سوى البلاغ المبين وقد فعل المصطفى ﷺ ذلك. والعجيب فى الكافرين أنّهم يعرفون نعمة الله تعالى ثمّ ينكرونها وأكثرهم الكافرون. وفى يوم القيامة يبعث الله تعالى من كلّ أمّةٍ شهيداً هو رسول الله تعالى إليها ثمّ لا يؤذن للّذين كفروا ولا يُسْتَمَع إليهم، ولا هم يُسْتَعْتَبون ولا يُطْلَب منهم العُتْبَى ورضا الله تعالى بعد أن أغضبوه جلّ وعلا فى الحياة الدّنيا. وإذا رأى الكافرون العذاب فلا يخفّف عنهم ولا هم يُنْظَرون ولا يُمْهَلون. وإذا رأى المشركون شركاءهم فى الكفر قالوا يا ربّنا هؤلاء شركاؤنا الّذين كنّا نعبدهم فى الدّنيا من دونك فقال لهم المعبودون إنّكم لكاذبون فى أقوالكم، واستسلم العابدون لحكم الله تعالى فيهم وضلّ عنهم ماكانوا يفترون على الله تعالى من آلهةٍ مزعومة تأكّد لهم يوم القيامة عجزها. وإذا كان للكافرين عذابٌ شديدٌ فإنّ للصّادّين عن دين الله تعالى عذاباً أشدّ بما كانوا يفسدون من كفرٍ وصدٍّ عن سبيل الله تعالى. وفى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود يبعث الله تعالى فى كلّ أمّةٍ شهيداً من أنفسها هو رسول الله تعالى إليها يشهد عليها بما قدّمت وأخّرت، ويأتى محمّدٌ ﷺ شهيداً على أمّته بأنّه عليه الصّلاة والسّلام قد بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة وكان لقومه النّاصح الأمين. وبما أنّ رسالته عليه الصّلاة والسّلام عالميّةٌ فإنّ على الإنسانيّة أن تقدر نعم الله تعالى على هذا الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم فتبادر إلى اتّباعه عليه الصّلاة والسّلام واتّباع النّور الّذى أنزله الله تعالى إليه وهو الكتاب العزيز الّذى جعله الله تعالى بياناً لكلّ شيءٍ من أمور الدّنيا والدّين، وهدىً من الضّلالة، ورحمةً لمن سار فى نوره، وبشرى للمسلمين بالجنّة الّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿ثواب الوفاء بالعهود وعقاب نقضها﴾
الآيات (٩٠ــ٩٧)

ممّا يجب على المؤمن الامتثال له الأمر بالوفاء بالعهود والنّهي عن نقضها. ويأتي على رأس العهود الّتي ينبغي الوفاء بها ما أخذه الله تعالى من بني آدم من ظهورهم من ذرّيّتهم بأن يفردوه عزّ وجلّ بالعبادة. إنّ هذا النّوع من الوفاء يمثّل قمّة العدل الّذي أمر السياق به المؤمنين وبالإحسان وإيتاء ذي القربى حقّه. والعدل بمعنى الإنصاف. والإحسان بمعنى العدل وزيادة التّنازل عن بعض حقّك للآخرين عن طيب نفس. وإيتاء ذي القربى حقّه إحسانٌ وزيادة صلة رحم. وفي مقابل هذه الأمور الثّلاثة ثمّة نواهٍ ثلاثة تتدرّج هي الأخرى نحو الأعلى وهي الفحشاء بمعنى ماعظم قبحه من الأفعال والأقوال، والمنكر وهو ما أنكره الشّرع والعقل كأن يكون ثمّة مجاهرةٌ بالفواحش كالزّنا مثلاً، والبغي وهو تجاوز كلّ حدود الظّلم والعدوان. إنّ الله سبحانه وتعالى يذكّرنا بالأوامر والنّواهي من أجل أن نتّعظ. وبعد التّلميح بالوفاء بالعهد يأتي التّصريح بالوفاء به والنّهي عن نقض الميثاق وقد جَعَلْنا الله سبحانه وتعالى الّذي حلفنا به وأكّدنا به العهد كفيلاً علينا وراعياً وشهيداً. إنّ الله سبحانه وتعالى يعلم ما نفعل فعلينا الامتثال للأوامر والنّواهي وعلينا الوفاء بالعهود والمواثيق وإلاّ كنّا كتلك الحمقاء الخرقاء الّتي تنقض حبلها بعد إبرام وتنكث غزلها بعد إحكام. إنّ الّذين ينقضون العهد والميثاق يتّخذون الأيمان الّتي شدّوا بها العهود وأكّدوا المواثيق دَخَلاً بينهم وغشّاً وخداعاً ووسيلةً لاهتبال الفرصة ساعة الغدر بإتيان المعاهَد من مأمنه. وإنّ هؤلاء الغادرين إنّما ينقضّون على فريستهم ظلماً وعدواناً حينما يأنسون في أمّتهم القوّة وليدة الكثرة الذّاتيّة أو المكتسبة عن طريق التّحالف مع الأقوياء من أجل ظلم الضّعفاء والغدر بهم. إنّ الله سبحانه وتعالى يختبرنا بأمره لنا بالوفاء وسيبيّن لنا نحن المسلمين ما كنّا نختلف فيه في الدّنيا مع الآخرين. وإنّ الله سبحانه وتعالى لو شاء لجعلنا أمّةً واحدةً مسلمة له جلّ وعلا ربّ العالمين ولكنّه جلّ وعلا لم يشأ فأضلّ من اختار الضّلالة وزاده ضلالاً بعدله، وهدى من اختار الهداية وزاده هدىً بفضله. وسوف يسألنا جلّ وعلا يوم القيامة عمّا كنّا نعمل في الحياة الدّنيا. وتأكيداً للنّهي عن نقض العهود والمواثيق ينهانا السّياق أن نتّخذ نحن المسلمين أيماننا دَخَلاً بيننا وغشّاً وخداعاً فتزلّ ـ لا سمح الله ـ أقدامنا بعد ثبوتها على المحجّة البيضاء ونذوق عذاب الله تعالى

العظيم فى الأولى والآخرة بسبب صدّنا الآخرين عن الدّخول فى دين الإسلام بسبب غدرنا. ولمّا كان من يغدر يهدف إلى أخذ ثمن الغدر فإنّ السّياق ينهانا أن نشتري بعهد الله تعالى ثمناً قليلاً ومتاعاً رخيصاً لأنّ كلّ ثمن ومتاع فى مقابل الغدر منزوع البركة فعلينا أن نقنع بما رزقنا الله تعالى من الحلال الطّيّب وأن نرجو ما عند الله فإنّه خيرٌ وأبقى. إنّ كلّ ما عندنا ينفد ويفنى، وإنّ ما عند الله تعالى باقٍ وخالد وسوف يجزى الله تعالى الصّابرين بأحسنِ ما كانوا يعملون، كما أنّه جلّ وعلا سوف يجزي من عمل صالحاً وهو مؤمنٌ من المسلمين والمسلمات أجره فى الحياتين الأولى والآخرة. إنّ كلاً من الحياتين ستكون سعيدةً وطيّبة بإذن الله تعالى فى الأولى حيث العمل ولا جزاء وفى الآخرة حيث الجزاء ولا عمل. ولمّا كان القرآن الكريم الّذى تبيّنه سنّة المصطفى ﷺ هو الّذى يهدى للّتى هي أقوم فقد تحوّل السّياق إلى الحديث فى القرآن الكريم الّذى أنزله ربّ العزّة على قلب المصطفى ﷺ بواسطة روح القدس بلسانٍ عربيٍ مبين.

«اقرأوا القرآن الّذى نزّله روح القدس من رب العالمين على المصطفى ﷺ واعملوا به» الآيات (٩٨—١١١)

الحياة الطّيبة الموعود بها فى الأولى والآخرة تتحقّق بإذن الله تعالى عن طريق تطبيق تعاليم القرآن الكريم الّذى تبيّنه سنّة المصطفى ﷺ. وتدور آيات القسم حول هذه المعانى. إنّ الآية الكريمة الأولى تأمرنا بأن نستعيذ بالله العظيم من الشّيطان الرّجيم إذا أردنا قراءة القرآن الكريم. ويقرّر السّياق أنّ الشيطان الرّجيم ليس له سلطان ولا سلطةٌ على الّذين آمنوا وعلى ربّهم جلّ وعلا يتوكّلون. إنّما سلطان الرّجيم على الّذين يتّخذونه وليّاً لهم وناصراً والّذين هم بإشراكهم الشّيطان الرّجيم مشركون بالله تعالى. ومن حماقات الكافرين اتّهامهم المصطفى ﷺ بافتراء القرآن الكريم حينما يبدّل الله تعالى الّذى يعلم ماينزّل آيةً مكان آية وحينما تنسخ آيةٌ لاحقةٌ حكم آيةٍ سابقة. إنّ أكثر الكافرين لايعلمون حقيقة القرآن الكريم ومعنى النّسخ وفائدته. إنّ القرآن الكريم كلّه، وفيه النّاسخ والمنسوخ، نزّله روح القدس جبريل عليه السّلام من ربّ الأنام بالحقّ ليثبّت الّذين آمنوا، وبخاصّةٍ فى تلك الفترة المكّيّة الحرجة، وهدىً من الضّلالة، وبشرى للمسلمين بالجنّة. ولم يقف الكافرون فى حمقهم عند حدّ، فقد انحطّوا إلى درك الزّعم

بأنّ هذا القرآن إنّما يعلّمه المصطفى ﷺ غلامٌ روميٌّ نصرانيٌّ أعجميٌّ حدّاد! إنّ كفّار مكّة لايستحيون من هذا الكذب، تماماً كما لايستحيي خصوم الإسلام حتّى يومنا هذا من ملاحدة ومستشرقين، من الكذب والزّعم بأنّ ذلك الغلام الأعجميّ، الّذى لايعرف العربيّة، الرّوميّ، النّصرانيّ، الحدّاد، هو الّذى يعلّم النبيّ ﷺ القرآن الكريم الّذى نزل بلسانٍ عربيٍ مبين والّذى تحدّى الله تعالى به الثّقلين الإنس والجنّ إلى يوم الدّين! إنّ حقيقة أولئك الكافرين أنّهم لايؤمنون بآيات الله تعالى ويصرّون على العمى بدل الهدى فالله تعالى لايهديهم سبله ولهم عذابٌ أليم. وإنّ أولئك الكافرين هم الكاذبون حقّاً لأنّهم لايؤمنون بآيات الله تعالى. ويلحق بهؤلاء الكاذبين المرتدّون الّذين شرحوا بالكفر صدورهم فعليهم غضبٌ من الله تعالى ولهم عذابٌ عظيم. ويخرج من دائرة التّهديد من أكرهه الكافرون على قول كلمة الكفر ولكنّ قلبه مطمئنٌ بالإيمان. إنّ الكافرين والمرتدّين قد استحبّوا الحياة الدّنيا على الآخرة وآثروا الضّلالة على الهدى فزادهم الله تعالى عن الهدى بعداً وإلى الضّلالة قرباً. وإنّ أولئك قد طبع الله تعالى على قلوبهم فلا يخرج عنها الكفر ولا يدخل فيها الإيمان، وعلى سمعهم فلا يسمعون دعوة الحقّ سماع قبول، وعلى أبصارهم فلا يرون نور الهدى لأنّهم هم الغافلون.

وبما أنّهم هم الخاسرون فى الأولى فإنّهم هم الخاسرون حقّاً فى الآخرة والعياذ بالله. وينال الّذين أرغمهم الكافرون على قول كلمة الكفر حظّهم. إنّ السّياق يخاطب المصطفى ﷺ بالقول: ﴿ثمّ إنّ ربّك﴾ ولا يخفى ما فى استعمال لفظ الرّبّ فى هذه الصّيغة من تثبيتٍ لفؤاد المصطفى ﷺ، ويقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى للّذين هاجروا من مكة إلى المدينة من بعد ما فتنهم الكافرون وآذوهم حتّى اضطرّوهم لقول كلمة الكفر ثمّ جاهدوا الكافرين باللّسان والسّنان وصبروا إنّ ربّك من بعد الفتنة وقول كلمة الكفر اضطراراً لغفورٌ رحيم. وتتجلّى المغفرة والرّحمة فى أقوى الصّور وأبهى الحلل فى يوم القيامة الّذى تأتى فيه كلّ نفسٍ تجادل عن نفسها وتوفّى كلّ نفسٍ جزاء ما عملت من خيرٍ تثاب عليه أو شرٍ تعاقب عليه

﴿عقاب كفران النّعم لباس الجوع والخوف﴾
الآيات (١١٢—١١٩)

بعد الحديث عن الّذين فتنهم كفّار مكّة حتّى اضطرّوهم لقول كلمة الكفر بأفواههم وعن الّذين جاهدوا وقبول الله تعالى الغفور الرّحيم جهادهم وصبرهم وأعمالهم الصّالحة يتحوّل السّياق إلى كفّار مكّة الظّالمين بقصد أن يستفيدوا من إمهال الله تعالى لهم وإلّا كان أخذ الله تعالى لهم أليماً شديداً. إنّ السّياق ليضرب مثل قريةٍ كانت آمنة مطمئنّةً يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكانٍ فكفرت بنعم الله تعالى فأذاقها الله تعالى لباس الجوع والخوف بما كان أهلها يصنعون من أعمالٍ سيّئة. وهذه القرية هي مكّة. ولم يكفر أهلها نعمتي الإطعام من الجوع والأمن من الخوف إنّما كفروا بأكبر نعم الله تعالى وهي نعمة الإسلام وذلك بتكذيب الرّسول الكريم والقرآن العظيم ظلماً وعدواناً. ويأمر السّياق النّاس أمر إباحةٍ بأن يأكلوا ممّا رزقهم الله تعالى حلالاً طيّباً، وأمر إلزامٍ ووجوبٍ بشكر نعمة الله تعالى عليهم بالهداية إلى نور الإسلام والإطعام من الجوع والأمانٍ من الخوف. ويتجلّى الشّكر في إفراد الله تعالى بالعبادة. وفي مقابل الكثير الّذي أحلّه الله تعالى لنا من الأطعمة والأشربة يذكر السّياق القليل الّذي حرّمه الله تعالى علينا، وفي حال الضّرورة سُمِح لنا بدفع خطر الموت شريطة عدم البغي بالتّجاوز إلى التّلذّذ بالمحرّمات وعدم العدوان بالتّجاوز إلى الشّبع.

ولمّا كان الحلال والحرام بيّنين فإنّ السّياق ينهى عن الكذب على الله تعالى بتحليل ما حرّم الله تعالى وتحريم ما أحل الله تعالى فإنّ الخسران مصير الكاذبين على الله تعالى. ومهما يكن الثّمن الّذي أخذوه في الدّنيا كبيراً فإنّه غير مباركٍ فيه، هذا إلى العذاب الأليم في الآخرة. ويضرب السّياق المثل على عقاب الله تعالى الباغين في الدّنيا قبل الآخرة ببني إسرائيل الّذين حرّم الله تعالى عليهم طيّباتٍ أُحِلّت لهم من ذي قبل. وبشأن من يرتكب أيّ ذنبٍ يرشده السّياق إلى باب التّوبة المفتوح على مصراعيه شريطة عمل الصّالحات دليلاً على صدق التّوبة والإنابة إلى الله تعالى الغفور الرّحيم.

﴿ إتّبع يا محمّد ملّة إبراهيم حنيفاً وادع إلى سبيل ربّك واصبر ﴾
الآيات (١٢٠—١٢٨)

لمّا كان دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به خير الأنام ﷺ هو الدّين الّذى لا يقبل الله تعالى من عبدٍ سواه، وكان عليه الصّلاة والسّلام قد بعثه الله تعالى بالحنيفيّة السّمحة ملّة إبراهيم عليه السّلام فقد كان فى القسم الأخير من السّورة الكريمة تعريجٌ على هذا الموضوع. إنّ السّياق يقرّر أنّ إبراهيم عليه السّلام أبا الأنبياء كان إماماً يُقْتَدَى به فى الخيرات، خاشعاً لله تعالى، حنيفاً موحّداً، ولم يك من المشركين مثل مشركى مكّة واليهود الّذين قالوا عزيزٌ ابن الله والنّصارى الّذين قالوا المسيح ابن الله. كما أنّه عليه السّلام كان شاكراً لنعم الله تعالى عليه وفى مقدّمتها الهداية إلى الصّراط المستقيم بعكس كفّار مكّة ـ مثلاً ـ الّذين بدّلوا نعمة الله تعالى كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار. وقد اجتبى الله تعالى إبراهيم عليه السّلام بالرّسالة، وهداه إلى دين الاسلام لله ربّ العالمين، واتّخذه الله تعالى خليلاً. ولمّا كانت التّوراة الموحاة إلى موسى عليه السّلام والإنجيل الموحى إلى عيسى عليه السّلام إنّما أُنْزِلا بعد إبراهيم عليه السّلام، وكان محمّد بن عبدالله ﷺ قد بعثه الله تعالى بحنيفيّة إبراهيم عليه السّلام الّذى يسبق محمّداً ﷺ زمناً بمدّةٍ تقترب من ألفين وخمسمائة سنة فقد قرّر السّياق أنّ ربّ العزّة قد أوحي إلى المصطفى ﷺ بأن يتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً منحرفاً قصداً وعمداً عن الشّرك إلى التّوحيد فإنّه عليه السّلام ما كان وقتاً من الأوقات من المشركين بل كان من الموحّدين. ولمّا كان بنو إسرائيل وهم أهل كتابٍ سماويّ يسكنون آنذاك فى المنطقة فقد كان ثمّة تعريجٌ إليهم فى الحديث وذلك من زاويّة اختلافهم فى يوم السّبت الّذى جعله الله تعالى فى حقّهم خاصّاً بعبادة الله تعالى. لقد اختلف القوم فى ذلك اليوم الّذى آثروه على يوم الجمعة الّذى اختير لهم أساساً، فإنّ منهم من اعتدى فى السّبت بالعمل فيه وذلك على غرار أهل قرية أَيْلَة الّتى كانت مطلّةً على البحر الأحمر. إنّ الله سبحانه وتعالى سوف يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون من أمر يوم السّبت ومن أمر دعوة محمّد بن عبدالله ﷺ العالمية ومن أمر دعوة محمّد بن عبدالله ﷺ النّاسخة لسائر الدّيانات السّماويّة فكيف بسواها من الدّيانات غير السّماويّة. ويرشد السّياق المصطفى ﷺ والمسلمين إلى أساليب

الدّعوة ومناهجها وإلى إيثار الفضل على العدل، والصّبر على العقوبة. إنّ الدّعوة إلى الله تعالى وإلى دين الإسلام تكون بالحكمة الّتى قوامها تعاليم القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ والعقل والكياسة ودماثة الخلق. كما تكون الدّعوة بالموعظة الحسنة وذلك على غرار الحجج والنّعم الّتى أشارت إليها هذه السّورة الكريمة. كما تكون بمجادلة الآخرين والحوار معهم بالطّريقة الّتى هي أحسن. إنّ الله سبحانه وتعالى أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين. ولّما كان المصطفى ﷺ ليس عليه سوى البلاغ وكان عليه الصّلاة والسّلام قد أُرْشِد إلى الفضل بالعفو بدلاً من العدل بالعقاب، وإلى الصّبر والاحتساب، فقد نُهي عليه الصّلاة والسّلام عن الحزن لإصرار كفّار مكّة على الإعراض والصّدّ، كما نُهى عليه الصّلاة والسّلام عن أن يكون فى صدره ضيقٌ وحرجٌ لتكذيب القوم له عليه الصّلاة والسّلام وللقرآن الكريم. وتحثّ آخر آيات السّورة الكريمة على تقوى الله تعالى وعلى الإحسان وذلك عن طريق التّأكيد بأنّ الله سبحانه مع الّذين اتّقوا بفعل الحسنات واجتناب السّيّئات، والّذين هم محسنون فى أقوالهم وأفعالهم ونيّاتهم حتى بلغوا مرتبة الإحسان كما بيّنها الحديث النّبويّ الشريف بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يـراك.

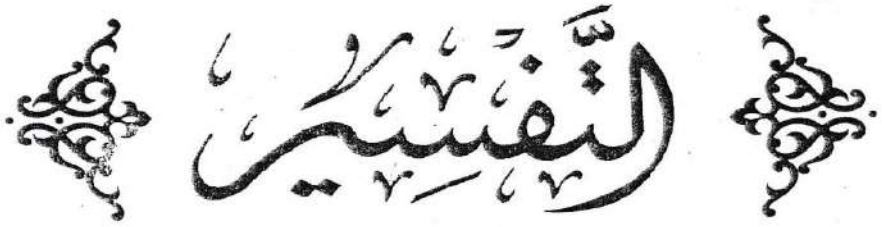

التفسير

﴿ لله تعالى الخلق والأمر وعليه قصد السّبيل ﴾
الآيـــات (١ــ٩)

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾

نودّ أن نقف ابتداءً عند أمرين اثنين. أوّلهما أمر الله تعالى الّذى تمّ استعجاله من قِبَل فريق من النّاس. وآخرهما جملة : ﴿أتى﴾ الّتى ابتدأت بها هذه السّورة المكّيّة الكريمة. وبشأن أمر الله تعالى الّذى تمّ استعجاله يصحّ أن يكون قيام السّاعة الّذى يرتبط به عذاب المشركين المكذّبين للسّاعة المستهزئين بالعذاب. وإنّ النّصّ على الإشراك مع الله تعالى سواه فى القول : ﴿سبحانه وتعالى عمّا يشركون﴾ ينبّه إلى أنّ المستعجلين هم المشركون. وهم إنّما استعجلوا قيام السّاعة تكذيباً لها واستهزاءً بها فى ضوء قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الشّورى[1] : ﴿الله الّذى أنزل الكتاب بالحقّ والميزان. وما يدريك لعلّ الساعة قريب. يستعجل بها الّذين لا يؤمنون بها والّذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنّها الحقّ. ألا إنّ الّذين يمارون فى السّاعة لفى ضلالٍ بعيد﴾.

وبشأن جملة ﴿أتى﴾ الّتى تبدأ بها الآية الكريمة، المعروف أنّ هذه الجملة تُسْتَعْمَل فى القرآن الكريم دليلاً على البُعْد الزّمانيّ أو المكانيّ أو النّفسيّ، فى حين تُسْتَعْمَل جملة : ﴿جاء﴾ بعكس ذلك تماماً فهي تُسْتَعْمَلُ دليلاً على القرب فى كلّ تلك المعانى.

وما دامت جملة ﴿أتى﴾ تُسْتَعْمَلُ دليلاً على البعد، وهى فى الآية الكريمة تدلّ فيما يبدو للوهلة الأولى على البعد الزّمانى، فما الحكمة من مجىء الجملة فى الزّمن الماضى علماً بأنّ قيام السّاعة متعلّقٌ بالمستقبل؟ إنّ الحكمة من مجىء الجملة فى صيغة الزّمن الماضى : ﴿أتى﴾ هي التّنبيه إلى تحقّق قيام السّاعة فكأنّ الحدث قد مضى بالفعل وانقضى. ووراء إيماء جملة : ﴿أتى﴾ إلى المستقبل البعيد الّذى سوف يتمّ فيه قيام السّاعة هي تومىء إلى استبعاد المشركين قيام السّاعة وإنكارهم للبعث. فى ضوء ذلك تكون جملة : ﴿أتى﴾ فى صيغة الزّمن الماضى قد أفادت ثلاثة معان. تحقّق قيام السّاعة. وتحقّق هذا القيام مستقبلاً. واستبعاد المشركين لقيام السّاعة وإنكارهم للبعث. وحينما يستعجل المشركون قيام السّاعة ومجىء العذاب يكونون مستهزئين فى واقع الأمر.

بناءً على ما سبق يكون معنى الآية الكريمة. والله تعالى أعلم، أتى أمر الله تعالى بقيام السّاعة المتيقّن الوقوع المتأكّد الحدوث مستقبلاً، ولذلك جاء الحديث فى صيغة الزّمن الماضى، فلا تستعجلوا أيّها المشركون المكذّبون المستهزئون قيام السّاعة. تنزّه الله

---

(١) الآية ١٧ و ١٨ .

عزّ وجلّ عمّا تشركون وتنسبون إلى الله جلّ وعلا من الصّاحبة والولد والشّريك والوليّ وتعالى علوّاً كبيراً.

ولمّا كانت حقيقة التّوحيد إنّما تمّت معرفتها بواسطة الوحي فقد تحدّثت الآية الكريمة التّالية فى هذا المعنى :

يُنَزِّلُ الْمَلَٰٓئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾

ينزّل الملائكة : أي جبريل[1].

بالرّوح : عن ابن عبّاس : بالوحي[2].

من أمره : بإرادته[3].

على من يشاء من عباده : على من يشاء من رسله[4].

أن أنذروا : بأن أنذروا[5].

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة ينزّل الملائكة، وفى مقدّمتهم جبريلّ عليه السّلام، بالرّوح من أمره جلّ وعلا، وبالوحي بإرادته عزّ وجلّ، على من يشاء من عباده من النبيّين والمرسلين عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه، بأن أنذروا المشركين والخارجين على الصّراط المستقيم وأخبروهم أنّه لا إله إلاّ الله تعالى الّذى له دون سواه الخلق والأمر فاتّقوا الله تعالى وأطيعون. وحينما يكون فى الآية الكريمة أمر المنذَرين بتقوى الله تعالى، وكانت التّقوى فى المعنويّات بمنزلة الوقاية فى المحسوسات يكون الأمر بالتّقوى هنا يمثّل أولى مراحل التّقوى، بمعنى اتّقاء عذاب الله تعالى وناره. وتأخذ درجات التّقوى صعداً حتّى تكاد تكون الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله تعالى كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك. وبعد الحديث فى الأمر يأتى الحديث فى الخلق.

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير الطّبرى ٥٣/١٤ وتفسير ابن كثير ٥٦١/٢ والجلالين .

(٣) الجلالين .

(٤) تفسير الطّبرى ٥٣/١٤ .

(٥) تفسير الطّبرى ٥٣/١٤ .

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾

خَلْقُ الله تعالى السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس بنصّ القرآن الكريم. جاء فى سورة غافر[1] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿لخلق السّماواتِ والأرضِ أكبر من خلق النّاس ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾ ويأتى الإنسان على رأس قائمة المخلوقات الأرضيّة. ومن البيّن أنّ المخلوقات الأرضيّة من حيث التّرقّى هي وفق هذا النّسق : الإنسان، الحيوان، النّبات، الجماد. وسوف يتبيّن أنّ السّياق فى السّورة الكريمة ينبّه على هذا النّوع من التّرقّى فى حديثه عن هذه المخلوقات الّتى سخّرها الله تعالى من أجل الإنسان.

إنّ الآية الكريمة هنا تتحدث عن خلق الله تعالى السّماوات والأرض بالحقّ ومن أجل غايةٍ ساميةٍ وهدفٍ نبيل، فقد سخّر الله تعالى كلّ مافى السّماوات والأرض من أجل الإنسان الّذى خلقه الله تعالى كما خلق جنس الجانّ من أجل عبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له. وإذا كان خلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس فإنّ خلق السّماوات السّبع أكبر من خلق الأرض. وقد أومأت الآية الكريمة إلى هذا المعنى بتقديمها السّماوات فى الذّكر على الأرض.

وحينما يكون الله تعالى هو وحده لا شريك له خالق السّماوات والأرض أكبر المخلوقات فذلك معناه أنّ السّماوات والأرض أكبر الأدلّة على استحقاق الله تعالى للعبادة وحده دون سواه. وحينما يشرك الإنسان مع الله تعالى غيره متخطّياً هذه الآية الكبرى يكون معنى ذلك احتمال تخطيه بقيّة الآيات الأصغر من خلق السّماوات والأرض لذا حسن مجيء التّعقيب فى الآية الكريمة : ﴿تعالى عمّا يشركون﴾.

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾

من البيّن أنّ حديث الآية الكريمة عن الإنسان الّذى كرّمه ربّه جلّ وعلا وحمله فى البّر والبحر ورزقه من الطّيّبات وفضّله على كثير ممّن خلق تفضيلاً من زاوية كونه نطفة مهينة فى الأصل من أجل لفت انتباه جنس الإنسان الكفور إلى تبديله نعمة الله تعالى عليه كفراً. إنّه بدلاً من أن يسخّر نعمة الله تعالى عليه بالقدرة على النّطق والبيان من

---

(١) الآية ٥٧.

أجل الدّعوة إلى الله تعالى والذّبّ عن دينه الّذى رضيه لعباده هو يكفر ويخاصم بالباطل ويبين فى حرصه على دحض الحقّ بباطله وإطفاء نور الله تعالى بفيه. إنّ جنس الإنسان الكفور الخصيم المبين فى جداله لم يستفد من آية السّماوات والأرض ومن باب الأحرى والأولى أنّه لم يستفد من الآيات الأخر الّتى تقلّ عن السّماوات والأرض فى مجال الحجّة والإقناع.

وبما أنّ السّياق المتدرّج فى الحديث من الأكبر إلى الأصغر قد تحدّث عن السّماوات والأرض وجنس الإنسان فبقي أن يتحدّث فى جنس الحيوان وهو ما تحوّل السّياق للحديث فيه.

وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

حين تريحون : حين تردّونها بالعشيّ من مسارحها إلى مراحها ومنازلها الّتي تأوى إليها . ولذلك سمّي المكان المُراح لأنها تراح إليه عشيّاً فتأوى إليه . يقال منه : أراح فلانٌ ماشيته فهو يريحها إراحة[1] .

وحين تسرحون : في وقت إخراجكموها غدوةً من مراحها إلى مسارحها . يقال منه : سرّح فلانٌ ماشيته يسرّحها تسريحاً إذا أخرجها للرّعي غدوة . وسرحت الماشية إذا خرجت للمرعى تسرح سرحاً وسروحاً . فالسّرح بالغداة والإراحة بالعشيّ[2] والسَّرْح شجرٌ له ثمر ، الواحدة سَرْحة . وسَرّحت الإبل أصله أن تُرْعِيه السَّرْح ، ثمّ جُعِل لكل إرسالٍ فى الرّعي . والسّارح الرّاعي[3] .

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/٥٥ وانظر المفردات : «روح» ٢٠٦ .

(٢) تفسير الطّبرى ١٤/٥٥ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «سرح» ٢٢٩ .

إلا بشقّ الأنفس : الشّقّ المشقّة والانكسار الّذي يلحق النّفس والبدن ، وذلك كاستعارة الانكسار لها[1] عن قتادة يقول : بجهد الأنفس[2] .

تتحدّث الآيات الكريمات الثّلاث عن الأنعام ، وهي ثلاثة أصنافٍ رئيسيّة ، الإبل والبقر والغنم . وإنّما قلنا رئيسيّة لأنّ رب العزّة أنشأ بنصّ القرآن ثمانية أزواجٍ من الأنعام . من الضّأن والمعز اثنين وكذلك من الإبل والبقر . قال عزّ من قائل في سورة الأنعام[3] ﴿ ومِنَ الأنعام حَمولةً وفَرْشاً . كلوا مما رزقكم الله ولا تتّبعوا خطوات الشّيطان إنّه لكم عدوٌ مبين . ثمانية أزواجٍ من الضّأن اثنين ومن المعز اثنين . قل آلذّكرين حرّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين . نبّئوني بعلمٍ إن كنتم صادقين . ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين . قل آلذّكرين حرّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصّاكم الله بهذا . فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً ليضلّ النّاس بغير علم . إنّ الله لا يهدي القوم الظّالمين ﴾ .

وقد تحدّثت كلٌّ من الآيات الكريمات الثّلاث عن صفةٍ في الأنعام .

إنّ الآية الكريمة الأولى تتحدّث عن خلق الله تعالى الأنعام وعن الدّفء الّذي يحصل النّاس عليه من أصواف الغنم وأوبار الإبل وأشعار المعز ، وعن المنافع من شرب اللّبن والاتّخاذ من جلودها بيوتاً نستخفّها يوم نحملها في سفرنا ويوم نبنيها في إقامتنا ، وما إلى ذلك من منافع نصّ السّياق من بينها على الأكْل منها . ولا يخفى أنّ ثمّة تكاملاً بين الأنعام في مجال المنافع في حقّ الإنسان . ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن جانبٍ يكاد يكون أهمّ الجوانب المتعلّقة بالأنعام ولهذا تقدّم الحديث عنه في الآية الكريمة الأولى .

ولمّا كان دين الإسلام الّذي يُعْنَى بالحقّ وبالحقيقة في المقام الأوّل لا يُغْفِل الجمال بل يعطيه حقّه الّذي يكمل به دائما وأبداً الحقّ والحقيقة لذا تحدّثت الآية الكريمة التّالية عن جمال الأنعام وزينتها . إنّ كلّ شيء في هذا الوجود قد حباه الله تعالى قدراً من الجمال ولا يُسْتثنَى من هذه القاعدة مخلوقٌ واحدٌ ، وإن تفاوتت الحظوظ من الجمال والزّينة .

إنّ الآية الكريمة الثّانية تقرّر أنّ الأنعام الّتي خلقها الله تعالى من أجلنا لنا فيها

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «شقّ» ٢٦٤ .

(٢) تفسير الطّبري ٥٦/١٤ .

(٣) الآيات ١٤٢ ـ ١٤٤ .

جمالٌ وزينةٌ حين نريحها مساءً ونُرْجعها من مراحها عشيّاً ممتلئة البطون والأضراع وحين نُسَرِّحها صباحاً ونخرجها إلى مرعاها غدوة رشيقة القوام خفيفة الحركة .

وإنّ الآية الكريمة الثّالثة تكاد تتحدّث عن الإبل بخاصّة ، من زاوية انفرادها بحمل الأثقال إلى بلدٍ لم نكن بالغيه بدون الإبل ـ وما في حكمها ـ إلا بشقّ الأنفس ، ولم نكن واصليه بدون ذهاب الشّقّ من أنفسنا بمعنى النّصف بسبب المجهود الّذي نبذل والمشقّة الّتي نتكبّد . وتختم الآية الكريمة بما يشبه الحكمة من تسخير الإبل لحمل الأثقال والسّبب وراء هذا النّوع من النّفع وهو رأفة الله تعالى ورحمته بنا جلّ وعلا .

وليس بخافٍ على واحدٍ منّا أنّ الطفل الصّغير يستطيع بإذن الله تعالى قيادة قافلةٍ من الإبل . إنّ ذلك لا يمكن أن يتمّ شيءٌ منه لو لم يسخّر الله تعالى الأنعام من أجلنا فواجبنا الشّكر لله تعالى على نعمه وآلائه .

وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

تحدّثت الآية الكريمة السّابقة عن الإبل الّتي تحمل أثقالنا إلى بلدٍ لم نكن بالغيه إلا بجهدٍ ومشقّة والّتي نركبها كذلك . وكانت هذه المعاني خير موطّىء لحديث الآية الكريمة الّتي نحن بصددها عن الأنواع الثّلاثة الّتي نركبها من جنس الحيوان ، وهي الخيل والبغال والحمير . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة ترتّب هذه العناصر الثّلاثة في ضوء حظّها الموفور من كونها رَكوباً وزينة . إنّ حظ الخيل من الرّكوب ومن الزّينة هو الموفور . إنّها في الحرب وفي السّلم تُتّخذ ركوباً . وإنّ الدّليل على حظّها الموفور من الجمال اسمها المشتقّ من الخيلاء والتّبختر في المشية . وتلي البغال الخيل في هذه الصّفات . وتأتي الحمير أخيرا . ومن الأدلة على أنّ البغال تقع بين الخيل والحمير المقارنة بين قدرة الخيل على العدو بسبب جلدها اللّينّ وإهابها الفضفاض وعجز الحمير عن ذلك بسبب جلدها المشدود وإهابها الضّيّق . والمعروف أنّ البغال مزيجٌ من الجنسين الآخرين . وبشأن حظّ الخيل الموفور من الجمال أو الزّينة بالقياس إلى حظّ الحمير لا يحتاج الأمر إلى المقارنة فالنّتيجة واضحة .

وإنّ عمليّة الخلق الّتي تدور حولها الآيات الكريمات جعلت التّذييل في الآية الكريمة ذا دورٍ بليغ : ﴿ ويخلق ما لا يعلمون ﴾ ولا يقف ما تشير إليه الجزئيّة الكريمة عند ذى الرّوح من خلق الله تعالى إنّما تتجاوزه إلى ما وفّق جلّ وعلا الإنسان لاختراعه .

إنّ الإنسان المخترع هو من مخلوقات الله تعالى وبالتّالي يكون ما وفّق الله تعالى الإنسان لاختراعه من مخلوقات الله تعالى بدلالة الالتزام .

ولمّا كان مايُتَّخَذُ رَكوباً يسير في السّبيل المحسوس وكان السّبيل المعنويّ هو الأهمّ فقد تحوّلت الآية الكريمة التّالية إلى الحديث فيه :

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾

وعلى الله قصد السّبيل : وعلى الله بيان الطّريق المستقيم(١) .

ومنها جائر : حائدٌ عن الاستقامة(٢) معوجّ(٣)

في العديد من آي الذّكر الحكيم يكون التّحوّل من الأمور المحسوسة إلى الأمور المعنويّة . وفي الآية الكريمة الّتي نحن بصددها الحديث في سبيل المعنويّات بعد أن كان في الآية الكريمة السّابقة الحديث في سبيل المحسوسات . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ربّ العزّة هو المتكفّل ببيان السّبيل المستقيمة ومعالم الصّراط المستقيم والطّريق القويم . وكلّ هذه المعاني يراد بها دين الإسلام الّذي بعث الله تعالى به خير الأنام ﷺ . ومن البيّن أنّنا أمام صيغة المفرد لأن طريق الحقّ واحدٌ لا ترى فيه عِوَجاً ولا أَمْتا(٤) .

وما دام سبيل الحقّ واضح المعالم فذلك معناه أنّ ما خالفه من سبل هي السّبل الخارجة عن الصّراط المستقيم ، الحائدة عن الاستقامة ، الجائرة عن طريق الحقّ . إنّ هذه السّبل الكُثْر هي الّتي أشارت إليها الآية الكريمة في صيغة الجمع : ﴿ ومنها جائر ﴾ جاء في هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا(٥) : ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله . ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتّقون ﴾ .

ولمّا كانت الهداية والضّلالة بعلم الله تعالى وبإذنه فقد جاء التّذييل مقرّراً علم الله تعالى وإذنه وقدرته بشأن الهداية والضّلال : ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ .

---

(١) انظر تفسير الطّبرى ٥٨/١٤ والجلالين وتفسير ابن كثير ٥٦٣/٢ وصحيح البخارى ١٠٣/٦ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير الطّبرى ٥٨/١٤ .

(٤) عوجاً : انخفاضاً . أمتاً : ارتفاعاً . .الجلالين .

(٥) سورة الأنعام ١٥٣ .

﴿ سخّر الله تعالى للنّاس كلّ ما في السّماوات والأرض فعليهم توحيد الله تعالى والإيمان بالبعث ﴾ .
الآيات (١٠ - ٢١)

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ
شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم
بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

تسيمون : ترعون . يقال منه : أسام فلانٌ إبله يسيمها إسامةً إذا أرعاها . وسوّمها أيضاً يسوّمها . وسامت هي إذا رعت فهي تسوم . وهي إبلٌ سائمة . ومن ذلك قيل للمواشي المطلقة في الفلاة وغيرها للرّعي سائمة[1] والسّوام : كلّ ما رعى من المال في الفلوات إذا خُلّي وسَوْمَه يرعى حيث شاء . والسّائم : الذّاهب على وجهه حيث شاء[2] .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك له الّذي أنزل من السّماء ماءً من نوع واحد . وإنّ لنا نحن البشر في المقام الأوّل شراباً من هذا الماء . ويتبعنا في شرب الماء الحيوان والنّبات . وقد قال عزّ من قائل[3] : ﴿ وجعلنا من الماء كلّ شيءٍ حي ﴾ وإنّ لنا من الماء كذلك شجراً فيه نُسيم مواشينا ونرعى أنعامنا . وإنّ للمواشي والأنعام وما إليها مطلق الحرّيّة في الحركة والانتقال . وإذا كنّا لاحظنا حظّ الإنسان الموفور من الماء فإنّ للإنسان الحظّ نفسه من الشّجر الّذي ينال منه ما يشتهي ابتداءً ، والّذي يرسل نَعَمَه كي ترعى . وحينما تكون أكبر معاني الآية الكريمة على النّحو التّالي : الماء للإنسان ويلحق الشّجر بالماء ، والشّجر للأنعام ، نكون بصدد نوعٍ من التّدرّج في ترتيب أجناس الإنسان والحيوان والنبات .

وبعد حديث الآية الكريمة الأولى عن الشّجر وهو أهمّ معالم النّبات وأكبرها يكون في الآية الكريمة الأخرى ترتيبٌ دقيقٌ لبعض فئات النّبات . إنّ الآية الكريمة الأولى إذا تحدّثت عن أكبر معالم النّبات وأعلاها فإن الآية الكريمة الأخرى تبدأ بذكر الزّرع الّذي يعتبر أهمّ معالم النّبات بعد الشّجر بسبب قدرته على تغطية أرض الحديقة وجَنّ أرض

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/٥٩ .

(٢) لسان العرب : «سوم» .

(٣) سورة الأنبياء ٣٠ .

الجنّة . والزّرع يشمل في المقام الأوّل الغذاء الرّئيسيّ . وهو بطبعه أقرب إلى القصر ، وربّما اللّصوق بالأرض والارتماء عليها . ويأتي بعد ذلك الزّيتون ، وهو أقرب إلى كونه غذاءً رئيسيّاً وشجره أقرب إلى القِصر ولكنّه أعلى من الزّرع عموماً . ويأتي بعد ذلك النّخيل . وإنّ ثمر النّخيل يجمع بين كونه طعاماً وغذاءً . هذا إلى كون شجر النّخيل أعلى من شجر الزّيتون ، بل إنّه من أعلى الشجر . ويأتي بعد ذلك الأعناب . وهي من ناحيةٍ فاكهةٌ خالصة ، ومن ناحيةٍ أخرى ممّا يعرش النّاس ويجعلون له ما يشبه العريش كي يتسلّق عليه . وبذلك هو أقلّ علوّاً من النّخيل وربّما كان أكثر علوّاً من بعض الزّروع . ويأتي أخيراً الحديث عن كلّ الثّمرات . ويستوي في ذلك منها الطعام الرّئيسيّ والفاكهة . وليس بخافٍ قيمة الزّيتون وشجره فيكفي أنّها وصفت في القرآن الكريم بأنّها شجرةٌ مباركة[1] وإنّ الشّيء ذاته يقال عن النّخيل فإنّ صفته يدلّ عليها اسمه المأخوذ من مثل القول : انتخلت الشّيء انتقيته فأخذت خياره[2] والمعروف أنّ النّخيل والأعناب أكرم النّبات على العرب الذّين نزل القرآن بلسانهم .

وفي الإمكان تمثّل وهاد المعاني ونجادها حينما نتخيّل التّحول المطّرد في ضوء اختلاف ارتفاعات الأنواع المختلفة من النّبات والتّحوّل المستمرّ من الوهاد والنّجاد . فلنرتّب الأنواع كما جاءت في الآية الكريمة ولنتحوّل مع الوهاد والنّجاد بشأن الزّروع والزّيتون والنّخيل والأعناب وكلّ الثّمرات . إنّنا بصدد وهادٍ مع الزّروع ، فنجادٍ مع الزّيتون ، فنجادٍ أرفع مع النّخيل فنجادٍ أقلّ مع الأعناب الّتي تقترب في ارتفاعها من شجر الزّيتون السّابق الذّكر ، فوهادٍ مع كلّ الثّمرات الّتي توافق الزّروع في هيئتها . إنّنا بصدد عقدٍ نضيدٍ تمثّل النّخلة العالية يتيمته ويحفّ بالنّخلة عن اليمين والشّمال الزّيتون والأعناب وهما يقلّان عن النّخلة علوّاً . ويحفّ بالزّيتون الزّرع عن يمينه وبالعنب كلّ الثّمرات عن يساره . والزّرع وبقيّة الثّمرات وإن تساويا ارتفاعاً فإنّهما يقلّان ارتفاعا عن الزّيتون والأعناب .

ولمّا كانت هذه الأنواع المختلفة من النّبات تُسْقَى بماءٍ واحد جاء في التّذييل الحثّ على التّفكّر في القدرة المطلقة للخلّاق العليم الّذي له وحده دون سواه الخلق والأمر . ولمّا كان اختلاف هذه الأنواع شكلاً وطعماً ولوناً ورئحة داخل إطارٍ واحدٍ هو جنس النّبات كان في التّذييل التّنبيه على هذا الإطار الواحد بمجيء لفظة آية في صيغة المفرد : ﴿ إنّ في ذلك لآيةً لقومٍ يتفكّرون ﴾ .

---

(١) سورة النّور ٣٥ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «نخل» ٤٨٦ .

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ
مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾

تحدّثت الآية الكريمة السّابقة عن النّبات ثمرة التّفاعل بين السّماء في هيئة الماء أساساً وهو النّازل من المُزْن بمعنى السّحاب ، وبين الأرض في هيئة التّربة الصّالحة أساساً . وتتحوّل الآية الكريمة الّتي نحن بصددها إلى الحديث عن بعض متعلّقات السّماء أساساً علماً بأنّ الله سبحانه وتعالى سخّرها لنا نحن سكّان الأرض. إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ربّ العزّة سخّر لنا اللّيل فجعله سكناً ، وسخّر النّهار معاشاً ، وسخّر الشّمس نهاراً لنحصل منها على شتّى المنافع وفي مقدّمتها الدفء والحساب ، وسخّر القمر في اللّيل غالباً لنحصل منه على شتى المنافع وفي مقدمتها الاهتداء والحساب . ويلحق بالشمس والقمر النجوم المسخّرات بأمره جلّ وعلا . ومنها السّيارة والثّوابت . وفي مقدمة نفعها الاهتداء بها . ومن البيّن علاقة اللّيل والنّهار والشمس والقمر والنّجوم بالسماء . ومن البيّن كذلك أنّ ربّ العزة سخّر كلّ ذلك لجنس الإنسان في المقام الأوّل . وحينما يكون اللّيل غير النّهار ولا يجتمعان . وحينما تكون الشمس غير القمر ولا يكادان يجتمعان وبخاصةٍ حينما يكون القمر بدراً يبادر في ليلة النصف من الشّهر الشمس الطّلوع فى المشرق وقت غروب الشمس فى المغرب ، وحينما تكون النجوم غير الشمس الّتي حينما تطلع لايبدو في السماء نجمٌ واحدٌ ولا كوكب ، وغير القمر الّذي يطفىء وهج النجوم في الليالي البيض على جهة الخصوص يكون التّذييل الّذي جاءت فيه لفظة الآيات في صيغة الجمع بمثابة التّنبيه ألى أنّنا بصدد آيات مختلفات دالّات على القدرة المطلقة للخلاّق العليم الّذي ينبغي أن يفرده بالعبادة كلّ عاقل .

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

وماذرأ لكم : وسخّر لكم ما خلق لكم[1].
بعد حديث آيات القسم السّابق عن آيات الخلق الكبرى فى السّماوات والأرض

(١) تفسير الطّبرى ١٤/٦٠ .

وخطوطها العريضة، وبعد حديث آيات هذا القسم السّابقة عن آيات الخلق فى السّماوات والأرض من جهة خطوطها الدّقيقة، تواصل الآية الكريمة الّتى نحن بصددها الحديث فى بعض الخطوط الدّقيقة للأرض من جهة اليابسة. إنّ الله سبحانه وتعالى سخّر لنا كلّ ما خلق جلّ وعلا فى الأرض وجعله مختلفاً ألوانه من الحيوان والنّبات والجماد ومنه الجبال ذوات الجُدَد المختلفِ ألوانها من بيضٍ وحُمْرٍ وغرابيب سود. وقد نبّه على وجوب أخذ العبرة من ظاهرة اختلاف الألوان مجيء لفظة آية فى صيغة المفرد وذلك فى القول: ﴿إنّ فى ذلك لآيةً لقوم يذّكّرون﴾ والمعنى لقومٍ يتّعظون. وحينما يكون التّذكّر من نصيب القلب المُسْتَقَرّ أساساً مروراً بالذّاكرة أو الذّهن، وحينما يكون للعقل من ذى قبل نصيبه من التّفكّر والتّعقّل يكون كلٌ من العقل والقلب قد نال نصيبه.

وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

البحر: أصل البحر كلّ مكانٍ واسعٍ جامعٍ للماء الكثير[1].

لتأكلوا منه لحماً طريّاً: هو السّمك الّذى يصطاد منه[2].

حليةً تلبسونها: هو اللّؤلؤ والمرجان[3].

مواخر فيه: يقال: مَخَرت السفينة مَخْراً ومُخوراً إذا شقّت الماء بجؤجئها مستقبلةً له. وسفينةٌ ماخرة والجمع المواخر[4].

من المعروف أنّ نسبة الماء فى الأرض إلى اليابس كبيرةٌ حقّاً. وكأنّ السّياق فى

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «بحر» ٣٧.

(٢) تفسير الطّبرى ٦١/١٤.

(٣) تفسير الطّبرى ٦١/١٤.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «مخر» ٤٦٤.

تقديمه الحديث عن البحر ومتعلّقاته وتأخيره الحديث عن اليابس ومتعلّقاته ينبّه إلى مثل هذه الحقيقة.

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ربّ العزّة هو الّذى سخّر البحر لنا، وهو كلّ مكانٍ واسع جامع للماء الكثير، سواءٌ كان مِلْحاً أو عذباً[1] لنأكل منه لحماً طريّاً هو السّمك والحيتان وما إليهما. وإنّما وصف لحم السّمك بأنّه طريّ لأنّ الفساد يسرع إليه[2] فينبغى المسارعة إلى أكله. وبذلك يكون وصف اللّحم بأنّه طريّ قوّةً للقول: ﴿لتأكلوا منه﴾ وحينما يكون للبحر والماء المِلْح والعذب الكثير من الفوائد ومنها اتّخاذه ركوباً للسّفر والتّجارة وما إليهما يكون فى ذكر الأكل من لحمه الطّريّ ابتداءً تنبيهٌ إلى أهمّ منافع الإنسان ذكراً وأنثى من البحر وهو أكل السّمك الّذى يصطاد من المائين المِلْح والعذب. وبعد الأكل تأتى الزّينة: ﴿وتستخرجوا منه حليةً تلبسونها﴾ والمعروف أنّ اللّؤلؤ والمرجان إنّما يستخرجان من الماء المِلح على جهة الخصوص[3] هذا إلى أنّ الزّينة خاصّةٌ بالنّساء. وفى ذكر الزّينة تنبيهٌ إلى أنّ النّساء إنّما يتزيّنّ لأزواجهنّ لذا كان الخطاب فى الآية الكريمة شاملاً الجنسين معاً.

وبعد الأكل والزّينة يأتى التّنبيه إلى اتّخاذ البحر رَكوباً عن طريق السّفن الّتى تراها أيّها الإنسان تمخر بمقدّمتها أمواجه، وتشقّ بصدرها عبابه، سواءٌ كان الهدف من ركوب الفلك السّفر أو التّجارة أو المتعة. ولمّا كان ركوب البحر من أجل التجارة من أهمّ الأغراض كان النّصّ على هذا الغرض فى القول: ﴿ولتبتغوا من فضله﴾.

وحينما يفكّر الإنسان فى منافع الماء ملحه وعذبه وفى تسخير الله تعالى له بحيث إنّ الإنسان يستطيع بإذن الله تعالى أن يصنع الفلك الّتى تماثل الجبال فى الضّخامة والّتى تطفو فوق الماء، بإذن الله تعالى، ذلك الماء الّذى لا يستطيع، بإذن الله تعالى، أن يحتفظ بأدنى حصاةٍ إلّا فى قاعه، لايستطيع ذلك الإنسان المتفكّر المتدبّر العاقل إلّا أن يشكر لله تعالى نعمه وآلاءه. إنّ الآية الكريمة حثّت فى آخرها على وجوب الشّكر لله تعالى وذلك بإفراده بالعبادة جلّ وعلا.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/٦١.

(٢) الكشّاف ٢/١٩٩.

(٣) انظر البحر المحيط ٥/٤٧٩.

وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

رواسي جمع راسية. وهي الثّوابت فى الأرض من الجبال[١].
أن تميد بكم : ألاّ تميد بكم[٢] وتضطرب[٣] وتتحرّك[٤] وتمور[٥]
وسبلا : جمع سبيل كما الطّرق جمع طريق[٦].
وعلاماتٍ وبالنّجم هم يهتدون : عن ابن عبّاس : يعنى بالعلامات معالم الطّرق بالنّهار. وبالنّجم هم يهتدون بالليل[٧].

من أهمّ معالم البحر الّذى أشارت إليه الآية الكريمة السّابقة الاضطراب. وإنّ الحديث عن الماء رشّح للحديث عن اليابس، وإنّ اضطراب الماء رشّح للحديث عن الأرض من هذه الزّاوية. إنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ ربّ العزّة ألقى فى الأرض جبالاً رواسي راسخاتٍ شامخات لئلاّ تميد بمن عليها وتضطرب اضطراباً عظيماً وتمور موراً مخيفاً. ومع أنّ هذه الصّفة كادت تتحقّق للأرض بجانبيها المائيّ واليابس فإنّها لو حدثت يكون ظهورها فى البّر أكثر من البحر المضطرب بطبعه. وممّا يعمّق اتّجاه الحديث إلى البّر فى المقام الأوّل ذكر الأنهار الّتى تجرى فى الأرض ماءً فراتاً وذكر السّبل الّتى يسلكها النّاس.

والآية الكريمة الثّانية تشير إلى العلامات الّتى جعلها الله تعالى للسّبل والّتى يهتدى بها النّاس بالنّهار غالباً. وكيف تتمّ عمليّة الاهتداء فى البحر ليلاً حينما تكون السّماء صافية؟ بالنّجوم والكواكب. إنّ عمليّة الاهتداء الّتى أومأت إليها الآية الكريمة السّابقة

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/٦٢ .
(٢) تفسير الطّبرى ١٤/٦٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٥٦٥ ومفردات الرّاغب الأصفهانى : «ميد» ٤٧٧ .
(٤) الجلالين .
(٥) الكشّاف ٢/٢٠٠ والبحر المحيط ٥/٤٨٠ .
(٦) تفسير الطّبرى ١٤/٦٢ .
(٧) تفسير الطّبرى ١٤/٦٣ .

قد عمّقتها الآية الكريمة التّالية الّتى قرّرت أنّ عمليّة الاهتداء نهاراً تتمّ بالعلامات، وعمليّة الاهتداء ليلاً تتمّ بالنّجوم، إنّ الله سبحانه وتعالى هو خالق كلّ شيء فهو المستحقّ للعبادة وحده لا شريك لـــه.

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾

فى أسلوب الاستفهام الإنكاريّ تسأل الآية الكريمة الأولى أفمن يخلق كلّ شيءٍ وهو الله تعالى كمن لا يخلق فى استحقاق العبادة والجواب بطبيعة الحال معروف. إنّ الله تعالى الّذى يخلق كلّ شيءٍ هو المستحقّ وحده للعبادة. ولهذا كان فى التّذييل: ﴿أفلا تذكّرون﴾ إنكارٌ على المشركين عدم التّذكّر والاتّعاظ.

ولمّا كان ربّ العزّة الّذى خلق كلّ شيءٍ قد سخّر مافى السّماوات ومافى الأرض لنا نحن البشر فإنّ الآية الكريمة الثّانية تقرّر أنّا لو أردنا أن نعدّ نعم الله تعالى علينا فإنّا لن نحصيها ولو حرصنا. وبما أنّا لانستطيع أن نحصي نعم الله تعالى علينا فإنّا بالتّالى لن نستطيع أن نقوم بما يجب علينا من شكرٍ لله تعالى على نعمه وآلائه، فكيف ونحن المذنبون. وحينما يكون ثمّة ارتكابٌ للذّنب الّذى لايغفره الله تعالى وهو الشّرك تكون البليّة أعظم، لأنّ الكفران حلّ محلّ الشّكران والكفر حلّ محلّ الإسلام والإيمان. وحينما يتوب الإنسان من ذنبه توبةً نصوحاً فليعلم أنّ الله سبحانه وتعالى هو الغفور لكلّ ذنب وليس لعدم الشّكران وحده، وهو الرّحيم فلا يعذّب على الذّنب بعد الإنابة والتّوبة[1].

والآية الكريمة الثّالثة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى يعلم ما نُسِرّ وما نعلن من نوايا وأقوال وأفعال وسيجازى على كلّ ذلك يوم القيامة.

---

(١) انظر تفسير الطّبرى ١٤/٦٤.

وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

تعمّق الآية الكريمة الأولى معنى السّؤال الإنكارى فى آيةٍ كريمةٍ سابقة : ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾؟ إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الّذى يدعو كفّار مكّة ومن شاكلهم من المشركين ويعبدونه من الأصنام والأوثان لا يخلقون شيئاً وهم مخلوقون لله تعالى خالق كلّ شيء. وإنّ لسان حال الآية الكريمة يقول : إنّ العبادة يجب أن تتجه إلى الله تعالى وحده لا شريك لـه.

وتعمّق الآية الكريمة الأخرى ذلك المعنى فتقرّر أنّ ما يعبد المشركون من دون الله تعالى : ﴿أمواتٌ غير أحياء﴾ إنّ الأموات هم الّذين غادرتهم أرواحهم. وإنّ غير الأحياء هم الّذين ليسوا أحياء الآن وقد يكونون أحياء من ذى قبل وقد لا يكونون. وكأنّ فى إثبات الموت ونفي الحياة شمولاً لكلّ ما يعبد من دون الله تعالى من غير العقلاء ومن العقلاء. ويعمّق الشّقّ الثّانى عَجْزَ أولئك المعبودين، كما يقرّر البعث بعد الموت والحساب والجزاء وهو ما ينكره المشركون : ﴿وما يشعرون أيّان يُبْعثون﴾.

﴿عذاب المكذّبين المستكبرين فى الأولى والآخرة وثواب المتّقين﴾
الآيـــات (٢٢—٣٤)

إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾
لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

لا جرم : حقّاً[1].

لمّا كان كفّار مكّة ومن شاكلهم من أهمّ أهداف سورة النّحل المكّيّة الكريمة فقد تحوّل الحديث إليهم. إنّ الآية الكريمة الأولى إذا كانت فى القول : ﴿إلٰهكم إلٰهٌ واحد﴾ تخاطب النّاس جميعاً وفيهم كفّار مكّة فإنّ الحديث مالبث بعد ذلك أن عناهم فى المقام الأوّل. إنّهم هم الّذين لا يؤمنون بالآخرة أساساً، وبسبب عدم الإيمان بالبعث تنكر قلوبهم كلّ ما أوحى الله تعالى به إلى حبيبه المصطفى ﷺ فى هذا الشّأن، قرآناً كريماً وسنّة نبويّة مطهّرة، وتستكبر نفوسهم عن توحيد الله تعالى وتستنكف وتتعالى.

والآية الكريمة الأخرى تعلن فى أسلوب التّوكيد الّذى يكاد يرقى إلى أسلوب القسم حقيقة علم الله تعالى كلّ ما يُسِرُّ أولئك فى أعماق نفوسهم ونواياهم وما يعلنون قولاً وعملاً. وبما أنّ الكِبْر هو الباعث الحقيقيّ للقوم على رفض التّوحيد بعد الوقوف على حقيقته وعلى رفض التّوحيد بباعث البغض لمجرّد التّفكير الصّحيح فإنّ الآية الكريمة تعلن فى تذييلها قائلة : ﴿إنّه لا يحبّ المستكبرين﴾ والمعنى أنّ الله تعالى يحب فى المقابل الموحّدين، المذعنين للحقّ، المعلنين للصّدق باعتناق دين الإسلام واتّباع خير الأنام ﷺ.

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ
كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا
يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

تذكّرنا الآية الكريمة الأولى بقول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الفرقان[2] : ﴿وقالوا أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تُمْلَى عليه بكرةً وأصيلا. قل أنزله الّذى يعلم السّرّ فى

(١) تفسير الطّبرى ١٤/٦٥.
(٢) الآية ٥ و ٦.

السّماوات والأرض. إنّه كان غفوراً رحيماً﴾ إنّ كفّار مكّة يزعمون أنّ القرآن الكريم ليس سوى أساطير الأوّلين وأخبارهم غير الموثّقة الّتى طلب محمّد ﷺ أن تكتب له فهي تُقْرأ عليه وتُتْلى صباحاً ومساءً. وإنّ ربّ العزّة ليأمر المصطفى ﷺ بأن يقول لأولئك السّفهاء بأنّ ربّ العزّة والجلال عالم السّرّ فى السّماوات والأرض، الغفور الرّحيم، هو الّذى أنزل القرآن الكريم.

وإنّ الآية الكريمة الأولى هنا من سورة النّحل تقرّر أنّ كفّار مكّة حينما يقال لهم ماذا أنزل ربّكم الّذى ربّاكم بنعمه وآلائه على محمّد ﷺ فإنّهم يقولون: ﴿أساطير الأولين﴾ تلك هي الّتى يدّعى محمّد أنّها نزلت عليه: ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذباً﴾[1].

ولمّا كانت عاقبة المشركين سيّئةً فإنّ الآية الكريمة التّالية الّتى تبدأ بلام العاقبة تقرّر أنّ جواب المشركين له عاقبةٌ وبيلةٌ فى حقّهم لأنّهم سوف يحملون أوزارهم وثِقْل ذنوبهم كاملةً غير منقوصة، كما أنّهم سوف يحملون يوم القيامة من أوزار الّذين يضلّونهم بغير علم، فبئس مايزرون ويحملون من أوزارٍ وأثقال. وإنّما يحمل المتبوعون بعض أوزار التّابعين وليس كلّها لأنّهم يحملون من الأوزار ما يقابل تضليل التّابعين وصدّهم عن السّبيل ووراء ذلك يحمل التّابعون وزر تعطيلهم عقولهم واتّباع عمي البصائر أمثالهم.

قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

تشير الآية الكريمة إلى عذاب المكذّبين السّابقين العاجل فى الحياة الدّنيا، وتوشك أن تكون عاقبة كفّار مكّة مماثلةً إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً. إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ المكذّبين السّابقين قد مكروا وكذّبوا واستكبروا وظنّوا إمهال الله تعالى لهم إهمالاً فأخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر، وأتى جلّ وعلا بنيانهم من القواعد والأسس: ﴿فخرّ عليهم السّقف من فوقهم﴾ وغدت ديارهم أطلالاً ومنازلهم آثاراً وأتاهم عذاب الله تعالى من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون.

والآية الكريمة التّالية تشير إلى عذاب الآخرة.

---

(١) سورة الكهف ٥.

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾

كنتم تشاقّون فيهم : أصله من شاققت فلاناً فهو يشاقّني وذلك إذا فعل كلّ واحد منهما بصاحبه ما يشقّ عليه[1].

الخزي : الذّلّة والهوان[2].

والسّوء : العذاب[3].

في يوم القيامة سوف يخزي الله تعالى المشركين وسوف يقال لهم على سبيل التّبكيت والتّقريع أين الأصنام والأوثان الّتي أشركتموها مع الله تعالى في العبادة كي تدفع عنكم العذاب والّتي كنتم تُلْحِقون من أجلها المشقّة والعنت بالمصطفى ﷺ والمؤمنين وتكونون في شقّ غير شقّ المصطفى ﷺ والمؤمنين. لقد تخلّت عنكم تلك الأصنام والأوثان وخذلتكم وظهرت على حقيقتها. وإنّ هذا الجواب المفهوم ينطق به الّذين أوتوا العلم والإيمان، فهاهم أولاء يصوّرون حال الكافرين يوم القيامة ويقولون على رءوس الأشهاد : إنّ الخزي والهوان اليوم، والسّوء والعذاب، على الكافرين المشركين. إنّ كلاً من الخزي والسّوء يلفّ الكافرين من فرعٍ إلى قدم. وإنّ الآية الكريمة وما جرى على ألسنة الّذين آتاهم الله تعالى العلم اللّدنيّ يذكّرنا كلّ بقول الحقّ جلّ وعلا في سورة النّساء[4] : ﴿ومن يشاقق الرّسول من بعد ما تبيّن له الهدى ويتّبع غير سبيل المؤمنين نولّه ماتولّى ونصله جهنّم وساءت مصيراً﴾.

---

(١) تفسير الطّبري ١٤/٦٨ .

(٢) تفسير الطّبري ١٤/٦٨ .

(٣) تفسير الطّبري ١٤/٦٨ .

(٤) الآية ١١٥ .

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ
بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

فألقوا السّلم : فاستسلموا لأمره وانقادوا له حين عاينوا الموت قد نزل بهم[1].

ذُلُّ المكذّبين المستكبرين وخزيهم فى الحياة الآخرة موصولٌ بذلّهم وخزيهم فى الحياة الدّنيا. ويتأكّد كلّ ذلك حينما تتوفّى ملائكة العذاب الظّالمى أنفسهم وحينما يستسلمون لأمر الله تعالى بخزيهم وعذابهم ومع ذلك هم يحاولون أن يجرّبوا الكذب الّذى نفعهم وقتاً من الأوقات فى الحياة الأولى. إنهم يزعمون أنّهم لم يكونوا يعملون أدنى سوء ولكنّ ملائكة العذاب تكذّبهم وتخبرهم بأنّ الله تعالى علّام الغيوب هو العليم بما كانوا يعملون فى الحياة الدّنيا من تكذيب واستكبار. وإنّ معاني هذه الآية الكريمة تذكّرنا بمثل قول الحق جلّ وعلا فى سورة المجادلة[2] : ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلّفون لكم ويحسَبون أنّهم على شيء. ألا إنّهم هم الكاذبون. استحوذ عليهم الشّيطان فأنساهم ذكر الله. أولئك حزب الشّيطان. ألا إنّ حزب الشّيطان هم الخاسرون﴾.

وتقرّر الآية الكريمة الأخرى أنّ أولئك الظّالمين يؤمرون بأن يدخلوا أبواب جهنّم خالدين فيها أبدا. وبئس مثوى الكافرين جهنّم ومأواهم.

---

(١) تفسير الطّبرى ٦٨/١٤ .

(٢) الآية ١٨ و ١٩ .

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي
هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ
﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا
مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ
الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

في مقابل الكافرين المكذّبين المستكبرين ثمّة المؤمنون المصدّقون المتّقون. إنّ هؤلاء المتّقين الّذين بلغوا مرتبة الإحسان أو قاربوها حينما يقال لهم ماذا أنزل ربّكم على حبيبه المصطفى ﷺ قالوا على الفور أنزل خيراً. وأيّ خير أكبر من نزول القرآن الكريم على المصطفى ﷺ خير الأنام ونزول السّنّة المطهّرة المبيّنةً للقرآن الكريم والكتاب العظيم.

وتبادر الآية الكريمة الأولى ذاتها إلى تقرير الجزاء الحسن للمتّقين في الأولى والآخرة جزاء إحسانهم. أمّا حسنة الدّنيا فإنّها الحياة الطّيّبة في صورها المختلفة ومنها الزّوجة الصّالحة فقد وُصِف عباد الرّحمن بالقول في سورة الفرقان[1]: ﴿والّذين يقولون ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرّيّاتنا قرّة أعين واجعلنا للمتّقين إماماً﴾ وأمّا حسنة الآخرة فإنّها الجنّة الّتي فيها ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، والّتي تعبّر عنها الآية الكريمة بأنّها دار الآخرة، وبأنّها خير، وبأنّها نعم دار المتّقين. والمعروف أنّ لفظ خير أصله أخير، ولكثرة الاستعمال حذفت الهمزة. والمعنى أنّ دار الآخرة وما فيها من نعيمٍ مقيمٍ للمتقين خيرٌ من الأولى. وقد جاء خطاباً للمصطفى ﷺ قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الضّحى[2]: ﴿وللآخرة خيرٌ لك من الأولى﴾ وجاء في سورة يوسف[3] قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ولأجر الآخرة خيرٌ للّذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

---

(١) الآية ٧٤.

(٢) الآية ٤.

(٣) الآية ٥٧.

ولمّا كان فى الآخرة جنّاتٌ وليس جنّةً واحدة فقد بيّنت الآية الكريمة الثّانية هذه الحقيقة فقرّرت أنّ دار المتقين جنّات عَدْنٍ وإقامةٍ دائمةٍ يدخلها المتّقون وتجرى من تحت شجرها وقصورها الأنهار، ولهم فيها ما يشتهون. إنّ المتّقين كما كان جزاؤهم فى الأولى الحياة الطّيّبة الّتى عبّر عنها بأنّها حسنة كان جـــزاؤهم فى الآخـــرة النّعيم المقيـــم فى جنّات النّعيم.

ولمّا كان من مات فكأنّما قامت قيامته وكان المكذّبون المستكبرون قد توفّتهم ملائكة العذاب وبشّرتهم بالعذاب الأليم فى نار الجحيم فإنّ المتّقين فى المقابل تتحدّث الآية الكريمة الثّالثة عن ملائكة الرّحمة الّتى تتوفّاهم وترحّب بهم وتكرم وفادتهم. إنّ الآية الكريمة تصف أولئك المتّقين بأنّهم الّذين تتوفّاهم الملائكة وتنتهى حياتهم الأولى طيّبين وذلك استمرارٌ للحياة الطّيّبة الّتى أكرمهم الله تعالى بها. وإنّ الملائكة الّذين يستلّون بلطفٍ أرواح المتّقين يقولون لهم سلامٌ عليكم وأمنٌ وطمأنينةٌ من ربٍّ رحيم: ﴿ادخلوا الجنّة بما كنتم تعملون﴾ وبسبب صالح الأفعال وطيّبها الّتى كنتم تأتون.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ
ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ
سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

هل ينظرون: هل ينتظر هؤلاء المشركون[1].

وحاق بهم: وحلّ بهم[2].

تسأل الآية الكريمة الأولى المشركين فى إنكار: حينما يصرّ الّذين أشركوا على الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى هل ينتظرون أيّ شىءٍ آخر سوى أن تأتيهم ملائكة العذاب الّتى استبعدوا مجيئها لقبض أرواحهم الخبيثة فى طريقةٍ عنيفةٍ أو أن يأتيهم عذاب الله تعالى فى الأولى والآخرة. إنّ هذا وذاك هو ما انتظره المشركون فى كلّ زمانٍ ومكان وهو

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/٧٠.

(٢) تفسير الطّبرى ١٤/٧١.

كذلك مافعل الله سبحانه وتعالى بالمشركين السّابقين على كفّار مكّة ومن شاكلهم. وإنّ الّذى حلّ بالمشركين من عذابٍ إنّما هو بسبب أعمالهم السّيّئة فما ظلمهم الله تعالى بحذف حسنةٍ أو إضافة سيّئة ولكنّهم كانوا فى الحياة الدّنيا يظلمون أنفسهم بارتكاب الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى وهو الشّرك.

وتصرّح الآية الكريمة التّالية بأنّ العذاب الّذى أصاب القوم وحلّ بهم إنّما كان بسبب ما أتوا من أعمالٍ سيّئة وبسبب استهزائهم به بباعث التّكذيب والاستبعاد.

﴿ على الرّسول البلاغ والبيان ، وثواب المؤمنين الصابرين وعذاب الكافرين المستكبرين ﴾
الآيـــات (٣٥ــــ٥٠)

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن
شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ
فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾

يكذب كفّار مكّة ومن شاكلهم من المشركين على الله تعالى فيزعمون أنّ إشراكهم مع الله تعالى غيره فى العبادة وتحريم البحائر والسّوائب والوصائل والحوامى الّتى أشارت اليها الآية الكريمة الثّالثة بعد المائة من سورة المائدة وغيرها ممّا حرّم المشركون إنّما تمّ كلّ ذلك بمشيئة الله تعالى، ولو شاء الله تعالى غير ذلك لفعل بأن منعهم عن كلّ ذلك أو هداهم. وتقرّر الآية الكريمة أنّ المشركين السّابقين قالوا لرسلهم مثلما قال المشركون للمصطفى ﷺ. وتقرّر الآية الكريمة الحقيقة الّتى لا يجهلها المشركون ولكنّهم يدّعون الجهل بها وهي أنّ الرّسل ليس عليهم إلاّ البلاغ المبين. وإنّ ما يقوم به الرّسل والدّعاة إلى الله تعالى هو ما يسمّى هداية الإرشاد، بمعنى أنّ مهمّتهم تقف عند الإرشاد إلى الهدى والدّلالة عليه، وقد فعل الرّسل ذلك وكذلك الدّعاة إلى الله تعالى. أمّا هداية التّوفيق لاعتناق دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده فإنّها حقّ لله تعالى وحده لا شريك له. إنّه جلّ وعلا إن شاء هدى وإن شاء أضلل: ﴿لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون﴾[1].

والآية الكريمة التّالية تعمّق هذه المعانى.

---

(١) سورة الأنبياء ٢٣.

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾

الطّاغوت : الشّيطان[1] وقال الإمام مالك : الطّاغوت هو كلّ ما يعبد من دون الله عزّ وجلّ[2].

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة قد بعث فى كلّ أمّة من الأمم، ابتداءً بقوم نوح عليه السلام وانتهاءً بأمة محمّد بن عبدالله ﷺ، رسولاً بأن اعبدوا الله تعالى وحده لاً شريك له واجتنبوا الطّاغوت وكلّ ما يُعبد من دون الله تعالى. إنّ مِنّ هذه الأمم من هداه الله تعالى، وإنّ منهم من حقّت عليه الضّلالة ووجبت[3] ومن البيّن أنّ المسئوليّة تقع على الإنسان ذاته. إنّ من جاهد فى الله تعالى هداه الله تعالى السّبل إليه جلّ وعلا، وإنّ من اهتدى زاده الله تعالى هدىً إلى هداه. وفي المقابل إنّ من انصرف عن الهدى زاد الله تعالى قلبه انصرافاً ومن ضلّ زاده ضلالاً.

إنّ على كفّار مكّة، إن أرادوا دليلاً حسّيّاً جديداً، أن يسيروا فى الأرض وأن ينظروا بقصد الاعتبار وأخذ العظة أن ينظروا بأبصارهم أو ببصائرهم : ﴿كيف كان عاقبة المكذّبين﴾ الّذين يمرّون عليهم ليلاً أو نهاراً.

إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾

يتّجه الخطاب فى الآية الكريمة إلى المصطفى ﷺ الّذى تكاد تذهب نفسه حسرات، والّذى يكاد يموت حزناً بسبب انصراف قومه عنه عليه الصّلاة والسّلام. إنّ

---

(١) تفسير الطّبرى ٨٣/٥ و٧١/١٤ وصحيح البخارى ٥٧/٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥١٢/١ .

(٣) الجلالين .

الآية الكريمة تقول للمصطفى ﷺ : إن تحرص أيها الرّسول العظيم الكريم، وأيّها النبيّ الرّءوف الرّحيم ، على هدى قومك الّذين أعرضوا عن دعوة الحقّ واستحبّوا العمى على الهدى فإنّ الله سبحانه وتعالى لا يهدى من آثر الضّلالة على الهدى فزاده الله تعالى ضلالاً إلى ضلاله. إنّ هؤلاء ليس لهم من دون الله تعالى من ناصرين ومانعين من عذاب الله تعـالى.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

وأقسموا بالله جهد أيمانهم : وحلف هؤلاء المشركون من قريشٍ بالله[1] غاية اجتهادهم فيها[2].

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ كفّار مكّة المنكرين للبعث حلفوا بالله العظيم وأقسموا بالله تعالى غاية اجتهادهم فى أيمانهم بأنّ الله سبحانه وتعالى لا يبعث من يموت أبداً. قال تعالى : بلى يبعثهم[3] وعد الله تعالى ذلك وعداً حقّاً عليه جلّ وعلا : ﴿ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾ ذلك وفى مقدّمتهم كفّار مكّة.

والآية الكريمة الثّانية تبيّـن إحدى الحكم من البعث بعد الموت فتقرّر أنّ الله تعالى يبعثهم ليبيّـن جلّ وعلا لهم الّذى يختلفون فيه مع المؤمنين : ﴿وليعلم الّذين كفروا أنّهم كانوا كاذبين﴾ حينما أنكروا البعث ، وأنّ المؤمنين هم الصّادقون. وكما يعاقب الكافرون يثاب المؤمنون.

---

(١) تفسير الطّبرى ٧٢/١٤ .

(٢) الجلالين .

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٦٦/٧ والجلالين .

ولمّا كان من أسباب إنكار الكافرين يوم القيامة عدم قدرتهم على تصوّر القوة القادرة على إعادة الخلق من جديد فإنّ الآية الكريمة الثّالثة تقرّر أنّ أيّ شيءٍ يريده جلّ وعلا في هذا الوجود وفي أيّ زمان لا يحتاج إلى أكثر من أن يقال له مرّة واحدة فقط كُنْ فيكون بإرادة الله جلّ وعـــلا.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

لنبوّئنّهم في الدّنيا حسنة : لنسكننّهم في الدّنيا مسكناً يرضونه صالحاً[1]

من المعروف أنّ سورة النّحل من المكّيّ من القرآن الّذي نزل قبل هجرة المصطفى ﷺ من مكّة إلى المدينة[2] وبناءً على ذلك فإنّ السّورة الكريمة حينما تتحدّث عن الهجرة يكون حديثها عن الهجرة إلى الحبشة . والمعروف أنّ الهجرة الى الحبشة كانت مرّتين اثنتين وأنّهما كانتا قبل الهجرة إلى المدينة المنوّرة[3] ثمّ إنّ العبرة بعموم اللّفظ كما هو معروف لا بخصوص السّبب وكأنّ الحديث عن الهجرة هنا شاملٌ لكلّ هجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام في كلّ زمانٍ وكلّ مكانٍ يستطيع المسلم أن يطبق فيها تعاليم الإســـلام .

إنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ الّذين هاجروا في سبيل الله تعالى من مكّة المكرّمة ومن كلّ قريةٍ يظلم أهلُها المؤمنين وأنّ الّذين أُرغِموا على ترك الأوطان والأهل والأموال ابتغاء مرضاة الله تعالى وفراراً بدينهم فإنّ الله سبحانه وتعالى سوف يبوّئهم في الدّنيا حسنة وسوف يمكّن لهم في الأرض ويستخلفهم فيها . قال تعالى في سورة النّساء[4] ﴿ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغَماً كثيراً وسَعة ﴾ .

وإذا كانت الحسنة ، بمعنى الحياة الطّيّبة في الحياة الدّنيا ، هي الثّمرة العاجلة في

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/٧٣ .

(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن ١/٤٣ .

(٣) انظر السّيرة النّبوية لابن هشام (حلبى) ١/٣٢١ ونور اليقين ٦٤ و ٦٩ .

(٤) الآية ١٠٠ .

الأولى فإنّ أجر الآخرة أكبر لو كان المؤمنون المهاجرون يعلمون ثواب الهجرة لفرحوا أشدّ الفرح ، ومن ثم تنعت الآية الكريمة التّالية المهاجرين بأنّهم الّذين صبروا على البلاء وعلى ربهم جلّ وعلا يتوكّلون . وفي هذا حثٌ على الهجرة والصّبر والتّوكّل على الله تعـــالى .

ويصحّ أن يكون القول : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ عائداً إلى الّذين تخلّفوا عن الهجرة وإلى الّذين كفروا وظلموا المؤمنين حتّى أرغموهم على الهجرة .

وإنّ من أسباب تعنّت المشركين ظنّهم أنّ رسول الله تعالى إليهم لا ينبغي أن يكون واحداً من البشر . وإلى هذا المعنى أشارت الآيتان الكريمتان التّاليتان .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

فاسألوا أهل الذّكر : من أسلم من أهل التّوراة والإنجيل[1] .

بالبيّنات : الأدلّة والحجج[2]

والزّبر : الكتب جمع زَبور[3] وزبرت الكتاب كتبته كتابةً عظيمة[4]

وأنزلنا إليك الذّكر : وأنزلنا إليك يامحمّد هذا القرآن تذكيراً للنّاس وعظةً لهم[5]

من الأسباب الّتي تذرّع بها كفّار مكّة في عداوتهم للإسلام ونبيّ الإسلام ﷺ والمؤمنين استكثارهم نعمة الرّسالة على واحدٍ من البشر من بني جلدتهم . إنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ ربّ العزّة ما أرسل قبل محمّد ﷺ رسلاً إلّا رجالاً من البشر يوحى جلّ وعلا إليهم . وفي هذا المعنى جاء قول الحقّ جلّ وعلا[6] ﴿ وما أرسلنا من

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/٧٥ .

(٢) تفسير الطّبرى ١٤/٧٦ .

(٣) تفسير الطّبرى ١٤/٧٦ .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «زبر» ٢١١ .

(٥) تفسير الطّبرى ١٤/٧٦ .

قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم . ولدار الآخرة خيرٌ للذين اتّقوا . أفلا تعقلون ﴾ .

إنّ كفّار مكّة يستطيعون أن يستوثقوا بأنّ محمّداً ﷺ البشر الرّسول ليس بِدْعاً من الرّسل السّابقين فكلّهم رجالٌ من البشر وليسوا من الملائكة ، ومن أهل القرى والمدن وليس من أعماق البوادي . وهذا الاستيثاق يستطيعون أن يحصلوا عليه عن طريق أهل الكتب السّماوية السّابقة الّذين اعتنقوا دين الإسلام من اليهود والنّصارى ، والّذين لم يعتنقوا دين الاسلام بَعْد ، مِنَ الّذين تربطهم بكفّار مكّة علاقات صداقة وبخاصّةٍ يهود منطقة المدينة المنوّرة . إنّ في استطاعة كفّار مكّة أن يسألوا أهل الذّكر إن كانوا لا يعلمون أنّ كلّ الرّسل السّابقين من البشر وليسوا من الملائكة .

وإنّ الآية الكريمة الأخرى تقرّر أنّ ربّ العزّة قد أرسل المرسلين بالآيات البيّنات والحجج الواضحات ، وبالكتب السّماوية الموحى بها إلى بعضهم كصحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى عليهم جميعا صلوات الله تعالى وسلامه . وبشأن محمّد بن عبدالله ﷺ خاتم النبيّين وأشرف المرسلين أنزل الله تعالى إليه الذّكر الحكيم والقرآن الكريم والكتاب العزيز ليبيّن ﷺ للنّاس الّذين أرسله الله تعالى لهم أجمعين ويوضّح لهم معاني الذّكر الحكيم ويفصّل لهم مجمله ويكشف لهم غامضه ولعلّهم يتفكّرون ويستعملون نعمة العقل الّتي تفضّل الله تعالى بها عليهم استعمالا صحيحا .

وإنّ كفّار مكّة حينما يصرون على كفرهم هل هم في منجىً من عذاب الله تعالى ؟ ذلك ما تجيب عنه الآيات الكريمات الثلاث التاليات .

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾

أو يأخذهم في تقلّبهم : أو يهلكهم في تصرّفهم في البلاد وتردّدهم في أسفارهم[1]
أو يأخذهم على تخوّف : أو يهلكهم بتخوّفٍ وذلك بنقصٍ من أطرافهم ونواحيهم

(١) تفسير الطّبرى ١٤/٧٧ .

الشيء بعد الشيء حتى يهلك جميعهم . يقال منه : تخوّف مالَ فلانٍ الإنفاقُ إذا انتقصه . ونحو تخوّفه من التّخوّف بمعنى التّنقّص قول الشاعر[1] ابن مقبل :

تخوَّفَ السَّيْرُ منها تامكاً قَرِداً كما تخوَّف عودَ النّبعَةِ السَّفَنُ

السَّفَن : الحديدة الّتي تُبْرَد بها القسيّ[2] أي تنقّص السّير سنامها التامك القرد بمعنى العظيم المرتفع[3] كما تأكل هذه الحديدة خشب القسيّ[4]

يتحوّل السّياق إلى ترتيب عذاب الكافرين في ضوء أنواع مكرهم المختلفة إلى الحدّ الّذي انتهى بهم إلى المكر بالمصطفى ﷺ بحبسه عليه الصّلاة والسّلام أو قتله أو إخراجه من مكّة المكرّمة . إنّ العذاب يتدرّج من العذاب الشّاقّ إلى العذاب الأشقّ .

إنّ الآية الكريمة الأولى تسأل في أسلوب الإنكار : أفأمن كفّار مكّة الّذين مكروا السّيّئات ، ودبّروا المؤامرات ، وارتكبوا صنوف المنكرات ، أن يخسف الله تعالى بهم الأرض فتبتلعهم أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون في هيئة الحاصب من الرّيح مثلا أو الثّائر من البراكين أو الآخذ من الصّواعق وهكذا .

ويلاحظ أنّ النّوعين من العذاب يأخذان الكافرين القابعين في أماكنهم ، كما يلاحظ أنّ خسف الأرض بالكافرين أقرب أنواع العذاب إلى الذّهن احتمالاً . يلي ذلك أنواع العذاب الأخرى الّتى تأتي الكافرين وإنّ ممّا يقوّي هذا المعنى والتّدرّج في العذاب مجيء جملة : ﴿ تأتيهم ﴾ الّتي تستعمل في القرآن الكريم في الدّلالة على البعد .

وإنّ الآية الكريمة الثّانية المعطوفة على سابقتها تتحدّث عن العذاب الّذي يمكن أن يأخذ الكافرين في أثناء سفرهم وتقلّبهم في البلاد . والمعروف أنّ العذاب حينما يأتي المسافرين يكون في العادة أشدّ وقعاً وإيلاماً .

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة الثّالثة المعطوفة هي الأخرى تبيّنا أنها تتحدّث عن نوعٍ من العذاب ينقص الأرض من أطرافها ، ويأخذ القوم الطّائفة إثر الأخرى على التّوالي . وما أصعب انتظار العذاب الوشيك الحدوث الأكيد الوقوع على النّفوس ، خاصّةً حينما يرى القوم مصارع إخوانهم الفئة تلو الأخرى .

ولمّا كانت رحمة الله تعالى الواسعة قد سبقت عذابه وغضبه جلّ وعلا فإنّ الآية الكريمة الثّالثة تختم بالقول : ﴿ فإنّ ربّكم لرءوفٌ رحيم ﴾ إنّ على كفّار مكّة ومن شاكلهم أن يستفيدوا من فترة الإمهال هذه وإلّا كان الأخذ أليماً والعذاب شديداً .

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/٧٧ .

(٢) لسان العرب : «خيف» .

(٣) القاموس المحيط : «تمك» و : «قرد» .

(٤) لسان العرب : «خيف» .

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ
يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ
﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ
وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

الظِّلال جمع الظِّلّ[1] وهو أعمّ من الفيء فإنّه يقال : ظلّ الليل وظلّ الجنّة ، ويقال لكلّ موضعٍ لم تصل إليه الشّمس ظلّ ، ولا يقال الفيء إلّا لما زال عنه الشّمس[2] فالظّلّ ماكان قبل الشّمس ، والفيء ما فاء بعد[3] وقيل : الفيء بالعشيّ والظّلّ بالغداة[4] وقوله تعالى : ﴿ يتفيّأ ظلاله عن اليمين والشمائل ﴾ قال أبو الهيثم : الظّلّ كلّ ما لم تطلُعْ عليه الشّمس فهو ظلّ ، قال : والفيء لا يُدْعَى فيئاً إلّا بعد الزّوال إذا فاءت الشّمس أي رجعت إلى الجانب الغربي . فما فاءت منه الشّمس وبقي ظلّاً فهو فيء . والفيء شرقيّ والظلّ غربي . وإنّما يُدْعى الظّلّ ظِلّاً من أوّل النّهار إلى الزّوال ثمّ يدعى فيئاً بعد الزّوال إلى اللّيل[5] قال حميد بن ثور يصف سَرْحةً وكنى بها عن امرأة :

فلا الظّلّ من برد الضُّحى تستطيعه ولا الفيء من بَرْد العشيّ تذوق

وإنّما سمّي الظّلّ فيئاً لرجوعه من جانبٍ إلى جانب . وتفيّأت الظّلالُ أي تقلّبَتْ وفي التّنزيل العزيز : ﴿ تتفيّأ ظلاله عن اليمينِ والشّمائل ﴾ . والتّفيُّؤ تَفَعُّل من الفيء ،

---

(١) لسان العرب : «ظلل» .
(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «ظلل» ٣١٤ .
(٣) لسان العرب : «ظلل» .
(٤) لسان العرب : «ظلل» .
(٥) لسان العرب : «ظلل» .

وهو الظّلّ بالعشيّ . وتفيّؤ الظّلال : رجوعها بعد انتصاف النّهار وابتعاثِ الأشياءِ ظلالَها . والتّفيّؤ لا يكون إلا بالعشيّ ، والظّلّ بالغَداة ، وهو ما لم تنله الشّمس ، والفيء بالعشيّ ما انصرفت عنه الشّمس[1]

داخرون : صاغرون[2]

تسأل الآية الكريمة الأولى الّذين مكروا السيّئات في إنكار : أو لم يروا إلى ما خلق الله سبحانه وتعالى من شيءٍ من الجماد والنّبات تنقلب ظلاله بعد الزّوال فيئاً عن اليمين وعن الشّمائل سجّداً لله سبحانه وتعالى وهم داخرون صاغرون ذليلون حقيرون .

وبشأن الآية الكريمة نحن نودّ أن نقف عند بعض الأمور .

وأوّل مانودّ أن نقف عنده صفة السّجود الّتي تخلعها الآية الكريمة على الأشياء . وإنّ سجود الأشياء لله ربّ العلمين دليلٌ على مطلق الخضوع للذّات العليّة ، وهو سجودٌ يذكّرنا بمثل قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الإسراء[3] : ﴿ تسبّح له السّماوات السّبع والأرض ومن فيهنّ . وإن من شيءٍ إلّا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم . إنّه كان حليماً غفوراً ﴾ .

وإنّ سجود الفيء في الآية الكريمة ، وهو الظّلّ بالعشيّ ، يذكّرنا بسجود الظّلّ بالغداة وقبل الزّوال في مثل قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الرّعد[4] : ﴿ ولله يسجد من في السّماوات والأرض طوعاً وكَرْها وظلالهم بالغدوّ والآصال ﴾ والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى يسجد له ، دليلا على مطلق الطّاعة للذّات العليّة ، من في السّماوات والأرض طوعاً في حقّ المؤمن وكرهاً في حق غير المؤمن الّذي لا يملك سوى الخضوع لمشيئة الله تعالى وإرادته ، كما يسجد ظلّ هؤلاء بالغدوّ وفي فترات الصّباح الباكر ، وفيئهم بالآصال وفي فترات العشيّ . إنّ الظّلّ والفيء لا يملكان إلّا طاعة الله تعالى الّتي عبّر عنها بالسّجود ، فليست حركة الظّلّ والفيء إلا سجوداً لله تعالى بشأن المؤمن والكافر والحيوان والنّبات والجماد .

وإذا كانت آية سورة الرّعد باستعمال اسم الموصول : « من » قد غلّبت العاقل

---

(١) لسان العرب : «فيأ» .

(٢) تفسير الطّبرى ١٤/٧٩ .

(٣) الآية ٤٤ .

(٤) الآية ١٥ .

فإنّ سورة النّحل غلّبت غير العاقل حينما تحدّثت عن كلّ شيء ، أي عن كلّ جمادٍ ونبات . إنّ كلاً من الظّلّ والفيء يسجد لله تعالى ، ومن باب الأولى ظلّ ما يسمو على الجماد والنّبات ، قبل الزّوال وبعده من الحيوان والإنسان .

وإنّ ممّا يجمل الإشارة إليه في مجال الفرق بين الظّلّ والفيء أنّ الظّلّ الّذي يوجد قبل طلوع الشمس ، وبعد طلوعها في جهة الغرب ، يتقلّص مع ارتفاع الشّمس حتّى ينعدم أو يكاد وقت الزّوال ، وبتحوّل الشّمس يتحوّل الظلّ ويصير فيئاً في جهة الشّرق ويمتدّ مع انخفاض الشّمس حتّى يختفي وقت الغروب .

ولمّا كان للشّمس مشارقها ومغاربها طوال العام وكانت الظّلال متقلّصة دائما وتتّجه من الطّول إلى القصر أبداً ، وكان الفيء ممتدّاً دائماً ويتّجه من القِصَر إلى الطّول أبداً حتّى يساوي فيء الوقت قبيل الغروب في الطّول ظلّ الوقت بعيد الشّروق فهل في الإمكان الإفادة من صيغة الجمع الّتي جاءت فيها لفظة الشّمائل بعد مجيء لفظة اليمين مفردةً والذّهاب إلى أنّ صيغة الجمع هذه تنبّه إلى الامتدادات الكثيرة للفيء بعدد الأشياء والأحياء كذلك ، ذلك الفيء الّذي يأخذ في الامتداد باطّراد حتّى تغيب الشمس ؟ ربما . فالله تعالى أعلم بالمراد .

وإذا كانت الآية الكريمة الأولى تشير إلى سجود ظلّ الشيء وفيئه ، وفي ذلك دليلٌ على سجود الشّيء ذاته ، فإنّ الآية الكريمة الثّانية تقرّر أنّ كلّ ما في السّماوات من مخلوقات وفي الأرض من دابّة وكذلك الملائكة تسجد لله تعالى وحده لا شريك له وهم لا يستكبرون عن عبادته جلّ وعلا . وكأنّ لسان حال الآية الكريمة يسأل جنس الإنسان الكافر في إنكار : ما الّذي دهاك أيّها الإنسان حتّى تكفر بالرّحمن !

والآية الكريمة الثّالثة تؤكّد المعنى السّابق وتقرر أنّ أولئك الّذين يسجدون لله تعالى ولا يستكبرون عن عبادته جل وعلا يخافون ربّهم عزّ وجلّ من فوقهم في السّماوات العُلى ويفعلون ما يؤمرون بفعله وينتهون عمّا أمِروا بتركه .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة قوّةٌ لما سبقها من آياتٍ كريمات تَنْعَى بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال على جنس الإنسان الكفور الكنود كفره وجحوده .

﴿ للمشركين الكفورين أولياء الشّيطان
مَثَلُ السَّوْء ولله تعالى المَثَلُ الأعلى ﴾
الآيات (٥١ ـ ٦٤)

وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة قد قال وأعلن للنّاس أجمعين : ﴿لا تتّخذوا إلٰهين اثنين﴾ ولا تعبدوا معبودين اثنين فضلاً عمّا وراء ذلك : ﴿إنّما هو إلٰهٌ واحد﴾ لا إله إلاّ هو ولا معبود بحقّ سواه. ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تنفى الشّرك وتثبت الألوهيّة لله تعالى الواحد القّهار. ويكون فى الآية الكريمة التفاتٌ فى التّذييل وذلك فى القول : ﴿فإيّاي فارهبون﴾ والمعنى وإيّاي أيّها النّاس خافوا بأن تطيعونى فلا تعصونى، وبأن تفردونى بالعبادة فلا تشركوا بى شـــيئاً.

وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾

وله الدّين واصباً : الوصوب : ديمومة الشّىء، ووصَب يصب وصوباً، وأوصب : دام. وفي التّنزيل العزيز : وله الدّين واصباً. قال أبوإسحاق : قيل فى معناه : دائباً أي طاعته دائمةٌ واجبةٌ أبداً، قال : ويجوز، والله أعلم، أن يكون : وله الدّين واصباً، أي له الدّين والطّاعة، رضي العبد بما يؤمر به أو لم يرض به، سهل عليه أو لم يسهل، فله الدّين وإن كان فيه الوصَب. والوصب : شدّة التّعب[1].

الآية الكريمة بمثابة التّبيين لمعنى الآية الكريمة السّابقة الّتى قرّرت أنّما هو إلٰهٌ واحدٌ لا إله إلاّ هو. إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله تعالى له وحده دون سواه الخلق والأمر. أمّا الخلق فيتجلّى فى أكبر مظاهره، فى السّماوات والأرض فلله تعالى كلّ ما فيهما. وأمّا الأمر فيتجلى فى أكبر مظاهره أيضا، فى توحيد الله تعالى وإفراده جلّ وعلا بالعبادة. إنّ لله تعالى وحده لا شريك له الدّين الخالص، فعلى النّاس جميعاً أن يداوموا على عبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له. إنّ كلّ شىءٍ فى الوجود يقول بوحدانيّة الخالق جلّ وعلا، وإنّ على عباد الله تعالى أن يكون إفرادهم لله تعالى بالعبادة موصولاً غير منقطع. وحينما يكون الله تعالى العليم القدير هو المستحقّ وحده للعبادة لا يكون ثمّة سببٌ موجبٌ للشّرك واتّقاء غير الله تعالى لأنّ الله تعالى هو وحده القادر على كلّ شىءٍ الفعّال لما يريد. ويكون فى آخر الآية الكريمة التّفاتٌ فى هيئة الخطاب على غرار الآية الكريمة السّابقة وذلك فى القول : ﴿أفغير الله تتقّون﴾

---

(١) لسان العرب : «وصب».

وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

تجأرون : تصرخون بالدّعاء وتستغيثون به ليكشف ذلك عنكم. وأصله من جؤار الثّور. يقال منه : جأر الثّور يجأر جؤاراً وذلك إذا رفع صوتاً شديداً من جوعٍ أو غيره[1].

كفّار مكّة فى المقام الأوّل يتقلّبون فى نعم الله تعالى ولا يشكرون له جلّ وعلا تلك النّعم بل يكفرونها. وإنّ الآية الكريمة الأولى تخاطب هؤلاء الجاحدين ومن شاكلهم فى كلّ زمانٍ ومكانٍ وتقول لهم : إنّ مابكم من نعمةٍ فمن الله تعالى، ومع ذلك أنتم تكفرون. فإذا مسّكم الضرّ وتمكّن منكم البلاء نسيتم ماتشركون مع الله تعالى بالعبادة وجأرتم إليه جلّ وعلا بشكواكم وسألتموه وحده جلّ وعلا أن يكشف الهمّ ويزيل الغمّ.

والآية الكريمة الثّانية تؤكّد تلوّن المشركين وتقلّبهم فى الأحوال. إنّهم إذا كانوا قد انصرفوا عن الله تعالى وقت الرّخاء ولجأوا إليه وحده جلّ وعلا وقت الشّدّة فإنّ الآية الكريمة هنا تقرّر أنّ فريقاً من هؤلاء المشركين بعد أن يكشف الله تعالى عنهم الضرّ يعودون إلى شركهم!

وتبيّن الآية الكريمة الثّالثة الحال الّتى يتمّ فيها شركهم. إنّهم يكفرون بما آتاهم الله تعالى من فضله، ويجحدون نعمه جلّ وعلا وآلاءه، ويعودون فى حال النّعمة والرّخاء إلى سابق شركهم. وفى أسلوب الالتفات تخاطب الجزئيّة الكريمة الأخيرة المشركين على جهة التّهديد والوعيد ﴿فتمتّعوا فسوف تعلمون﴾.

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾

تَنْعَى الآية الكريمة فى صدرها على كفّار مكّة جعلهم للأصنام والأوثان الّتى لا يعلمون منها ضرّاً لهم ولا نفعاً نصيباً ممّا رزقهم الله تعالى من الحرث والأنعام على نحو ما يتبيّن من هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام[2] قال تعالى : ﴿وجعلوا لله ممّا ذرأ من

---

(١) لسان العرب : «وصب» .

(٢) الآية ١٣٦ .

الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم. ساء ما يحكمون﴾.

وفى أسلوب القسم والالتفات تخاطب الآية الكريمة فى عجزها الكافرين الّذين يفترون على الله تعالى الكذب ويهرفون بما لا يعرفون من كفّار مكّة ومن شاكلهم وذلك فى القول: ﴿تالله لتسألنّ عمّا كنتم تفترون﴾ إنّ ربّ العزّة يقسم بذاته العظيمة ﴿تالله﴾ ويكون التفاتٌ إلى أولئك المفترين على الله تعالى الكذب وكأنّهم يقال لهم وجهاً لوجه: والله لتسألنّ يوم القيامة عمّا كنتم تفترون على الله تعالى من كذبٍ فى هذه الحياة الأولى.

ولا يكاد ينتهى العجب من كفّار مكّة الّذين يزعمون أنّ الملائكة بنات الله تعالى فى الوقت الّذى يكرهون فيه البنات! وحول هذا المعنى تحدّثت الآيات الكريمات الثّلاث التّاليات.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾

وهو كظيم: الكظم مخرج النّفس. وكَظْمُ الغيظ حَبْسُه. قال: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ ومنه كظم البعيرُ إذا ترك الاجترار، وكظم السّقاء بعد ملئه مانعاً لِنَفَسِه[1] وهو كظيم، قد كظم الحزن وامتلأ غمّاً بولادته له فهو لا يظهر ذلك[2].

على هون: على هوان[3].

يدسّه فى التّراب: يدفنه حيّاً فى التّراب فيئده[4] والدّسّ إدخال الشّىء فى الشّىء بضربٍ من الإكراه[5].

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «كظم» ٤٣٢.

(٢) تفسير الطّبرى ١٤/٨٤.

(٣) تفسير الطّبرى ١٤/٨٤.

(٤) تفسير الطّبرى ١٤/٨٤.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «دسّ» ١٦٩.

تقرّر الآية الكريمة أنّ كفّار مكّة يجعلون لله تعالى البنات بزعمهم أنّ الملائكة بنات الله تعالى وبعبادة الملائكة وإشراكها مع الله تعالى فى العبادة. وبذلك يتورّط كفّار مكّة فى العديد من صور الشّرك، فهم ينسبون لله تعالى الولد، وإنّما يكون الولد عن طريق الصّاحبة، وينسبون الملائكة وهم إناثٌ إلى الله تعالى فى الوقت الّذى يبغض فيه كفّار مكّة وسائر العرب البنات، وهم يعبدون الملائكة : ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذبا﴾[1].

وتبادر الآية الكريمة إلى تنزيه الله تعالى فى القول : ﴿سبحانه﴾ والمعنى تنزيهاً لك يا ألله عمّا زعموا. وفى الوقت الّذى يجعلون فيه لله تعالى البنات اللّائى يكرهون لأنفسهم هم يجعلون لأنفسهم مايشتهون من الحرص على نسبة الذّكور إليهم والابتهاج لولادة البنين لهم!

وتبيّن الآية الكريمة الثّانية الحالة النّفسيّة السّيّئة للعربيّ بعامّة المكّيّ بخاصّة حينما يولد له بُنَيَّةٌ فى الجاهليّة. إنّ الواحد من عرب الجاهليّة حينما يُخْبَرُ بأنّه قد رُزِق بأنثى فإنّ وجهه يظلّ مسودّاً من الحزن بسبب كراهتهم للبنات، وإنّ نَفْسَه المملوءة بالهمّ والغمّ اللّذين يتجدّدان ولا يخرجان تتحامل على همّها وغمّها اللّذين لا ينقصان بل يزيدّان، واللّذين لا يغادران بل يسكنان.

وإذا كانت الآية الكريمة الثّانية تتحدّث عن مدى الأسى الّذى تمكّن من نفس العربيّ الّذى وُلِدت له أنثى فإنّ الآية الكريمة الثّالثة تشير إلى بعض مايترتّب على أسى النّفس من حركاتٍ لا إراديّة عنيفة، وتصوّرات جاهليّة غير سويّة. إنّ العربيّ الّذى يرزقه الله تعالى قبل الإسلام ببنتٍ يتوارى من قومه من سوء مابُشّر به ويختفى من الأنظار بسبب النّبأ المزعج الّذى وصل اليه. وفى أثناء غيابه عن العيون تتجاذبه الأفكار والظّنون، ويسأل نفسه فى أسىً وحيرة : أيمسك البنت ويبقيها على قيد الحياة مع مافى ذلك من الهوان والمذلّة له أم يدسّها فى التّراب ويدفنها وهي حيّةٌ رغماً عنها! وينسى العربيّ فى تلك اللّحظات الحاسمات أو يتناسى أنّ بنته وفلذة كبده الّتى يقف منها هذا الموقف البغيض هي من جنس أمّه الّتى ولدته، وزوجه الّتى أسعدته. هذا إلى أنّ وأد البنات معناه وأد الأمّة. وقبل كلّ ذلك وبعده فإنّ هذا الموقف البغيض من البنت

---

(١) سورة الكهف ٥ .